


رواية

# الهروب الى اليابسة

محمد نعيم الحمراني



# الهروب الى اليابسة

رواية

محمد نعيم الحمراني

طبعة الاولى بغداد ٢٠٠٢

## أهــداء:

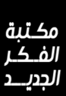
الى أخوتي علاء وحيدر الذين فارقتهم قبل الأوان.

# من كان يجهل الركض، يَطِيرْ كالعصفور

اسطورة إيرا

من الأدب العراقي القديم





# الفصل الاول

# ابـــن الــماء

## – ١ –

أتيت إلى هذا العالم على خشبة متهرئة مع أمواج مجنونة . صارعت جسدي حتى أنهكه الخوف ومنظر الجثث المنتشرة بألوان مختلفة على أمتداد المستنقعات . أريد أن أتكلم ولكن ثمة أفكار محيرة تشغلني وتبني أسواراً من حديد حول رأسي، لا أعلم من جلبها لي أو من جلبني لها، وكان ثمة صوت أغنية ما زال يرافقني:

أيها العريس ...
عزيز انت على قلبي
لذيذ . وصالك .
حلو كالشهد

أيها الاسد ...
عزيز انت على قلبي

لذيذ

وصالك

أيها العريس ...

امتدت أذرع النسوة وأخذنني عالياً، واستدارت بي حتى أجلستني داخل (طشت) .. كان ذلك يومي الأول . كنت أشعر بقدرتي على الكلام والقيام بأفعال البالغين، استطيع النهوض وملاحقة الظلال الطويلة التي تتحرك في الغرفة حول أمي النفساء.

نظرت إلى الماء في القدر على يمين امرأة، كانت لي رغبة في الاقتراب من الماء، ولكن المرأة رفعته ثم أنزلته ببطء فوق رأسي .. ياإلهي .. الماء ثانية، لقد أمضيت أياماً طويلة في الماء قبل أن تسحبني أصابع هذه المرأة، رفعتني ثم أنزلتني ببطء، مرت بأصابعها على جسدي وقرأت بجوار أذني أدعية وآيات، سمعتها تقول بصوت عال (سوف أطلق على هذا المولود اسم محمد) . أردت أن اصرخ (إن هذا ليس اسمي، لقد كان لي اسم آخر).

رفعتني إلى صدرها . ثم شرعت تلف جسدي بقطعة قماش بيضاء . أردت أن ابصق عليها وهي تقول: (لا تتحرك .. حمودي .. وكيح من هسه) .. هذا ليس اسمي الحقيقي ولا رغبة لي بأن يطلق عليّ.

كانت ولادتي متزامنة مع أيام العاصفة، وهذا بالذات ما كان مبررا كافيا للنسوة العجائز كي يلقبننّي بـ (عاصف)، حتى شاعت هذه التسمية بين أقربائي للتندر، بعدها لم أجد القدرة على إيقاف الألسن التي تناديني به، تحسست بان قطعة القماش التي لففت بها، بدأت تخنقني، إنها فم بأسنان طويلة يحاول التهامي، لي رغبة أن أمزقها وأهرّول إلى تلك الطرق التي لم امض بها سابقا، لقد ضجرت من المياه، إنها مياه غريبة وأنا لم أكن بهذا الحجم . كان لدي مركب كبير لا أعرف ماذا كان يحمل وإلى أين يتجه، ثمة أشياء كثيرة كنت ألا حقها ولكنْ كل ما يعنيني الآن هو كيف أُثبت لهؤلاء النسوة أنني لم أكن بمفردي وأن هناك من كان يناديني بـ (عاصف) لكنه لم يكن اسمي الحقيقي عموماً .. لم ينادني أحد في يوم ما خلاف هذه التسميات، وضعتني تلك المرأة داخل صندوق خشبي صغير مملوء بالقش وفوقه بساط صغير بألوان مختلفة،

ارتفعت الزغاريد وانخفض صوت تنفس الأم، كم كنت أرغب أن أضع أصابعي على فم المرأة التي تطلق الزغاريد، فكيف لي أن افرح وأنا قد خسرت . كل من كانوا حولي ولكن الأغنية ما زالت عجلة مسرعة ترسم خيوطها على أذني:

أيها الأسد

أيها العريس

دعني أقبلك

فقبلتي ألذ من الشهد

حاولت أن أغمض عيني ولكنْ ثمة بصيص، من خلاله أشاهد النسوة، مثل ظلال يخرجن من باب الغرفة المضطعجة فيها المرأة التي هي في نظر الجميع أمي، ربما هي كذلك، ولكنني غير متأكد حتى هذه اللحظة.

## ـ ٢ ـ

نظرت بتمعن إلى جسده، أسود، له أقدام صغيرة، ذنبه يشبه ذنب تمساح، وعيناه حمراوان، فمه يتقدم قليلا عن تفاصيل وجهه، شاهدته مربوطا على حديدة مغروزة قرب الباب الرئيسي . مربوطا بحزام مصنوع من الجلد لا يمكن تمييزه، ربما بسبب فعل الشمس والمطر والرياح . تسحبني أمي الى داخل المطحنة، ثم تتخير لها مكانا لتضع فيه حبوب الحنطة.

خوفي من صوت المكائن ودورانها، أحْرَقَ في داخلي استغراقاً مع عالم آخر بعيد، يحاول التهام كل ما يحيطني . سواد الأسئلة ضخّم في الرغبة في تسلق العمود الحديدي، كأن لي هيئة تشبهه، هذا الكائن الاسود المتدلي من عليه، أتحسس نباتات ميتة تحيطني، تحاول أن تتسلق جسدي . فرشت أمي قطعة قماش ووضعت بعض الأحجار على حافاتها، تحسبا لقوة الريح، ثم أفرغتْ كيس الحبوب على قطعة القماش تلك وبدأت حالها كحال بقية النسوة في هذا المكان تنظف الحنطة من

شوائب الطين والأحجار الصغيرة وعيدان التبن . جلست على حافة قطعة القماش، وبدأت اتأمل استغراق الام الصامتة في عملها . كانت هذه المرة الأولى التي أخرج فيها مع امي، فلم تكن تسمح لي بالذهاب لأعراس الجيران او الاختلاط مع الأولاد. أحسست اليوم بأنني في طريقي للخروج من رحم الأم ثانية ! صوت المكائن يسحبني من أقدامي كأنه يلفني بأذرع طويلة، ويمرغ جسدي بصورة لم أعهدها . يمكن سماعه حتى لو وقفت بجوار الباب الرئيسي للمطحنة . انه يخرج ليحاول التهام الشوارع والنهر، أتخيله ينفخ الأمواج ويأكل أسماكها، ثم مثل لص يدخل بحذر في جسد الحيوان المعلق، قلت لأمي:

ـ أريد أن أسمع صوتك

ولم أكن متيقنا أنها سمعت كلماتي، لكنها نظرت باتجاهي ثم قالت:

ـ لن تسمع هنا غير صوت المكائن.

أفترضت أنها قالت ذلك .. فصحت رافعا صوتي:

ولكنه صراخ.

ـ سمه ما شئت.

ـ لقد شاهدت ذلك الحيوان الموجود بجوار البـــاب الرئيســـي، ولكني لا أذكر اسمه

ـ هل شاهدته في بطني ؟.

قالت ذلك وهي تسمح عينها اليسرى بظاهر يدها.

ـ ربما.

ـ هذا (جليب الماي).

ـ كان يسبح خلف خيوط الدم.

(وهي تضحك) . هل كان ينبح ؟

ـ إنه لا يعيش إلاّ في الطين.

ـ نعم ويأكل الأولاد الاغبياء مثلك.

الماكنة الحمراء المتقشرة تهتز بعنف، طارحة السبوس والتراب من خرطومها باتجاه الزاوية البعيدة مـــن المطحنـــة، وهنالك صبيان يتضاحكون قرب عمود المخلوق الغريب، امـــرأة جلست بجوار أمي وكلّمتها مقربة رأسها من كومـــة الحنطـــة المنظفة تتفحصها بيدها.

أبي قال: كان الكلب يعيش معهم في الكوخ ذاته، يـــأكل مع الأولاد ويلعب في ساحة الدار، واستجاب بعد حين لإلحـــاح العائلة فبنى له بيتاً صغيراً من الطين . عند الغــروب يركــض مزهواً صوب أبي ويدور حوله عدة دورات، ثم يتعلق بثيابـــه كأنه يحاول احتضانه، ثم يئن ويصدر صوت نبـــاح مخــذول . عادة ما يترك البيت الذي بناه الأب ويغيب ساعات طويلة، ثـــم علمنا فيما بعد أنه يذهب إلى أعماق الـــهور، يـــأكل الأســـماك الصغيرة والطيور الميتة.

أنظر إلى أمي وهي تُدخل يديها فـــي كومـــة الحبـــوب وترفعها فتتساقط الحبوب الثقيلة ويتطاير الـــتراب، متصـــاعداً داخل المطحنة كغيمة يدفعها الهواء برفق إلى الخـــارج، خيـــل إليّ أن جثة الكلب بدأت تنتفخ وتهبط كأنـــها صبـــي يحتضـــن بقدميه العمود الحديدي، ينزلق على العمود الأملس ثم يتوقــف وينظر إلى وجوه النسوة والأولاد، يرتفع صوت المطحنة أكثر، أشاهد أفواه النساء الناظرة إليه تنفتح بصراخ غير مســـموع، يبتعد عن العمود متقدماً نحو أكوام الحنطة ويحد النظر إليـــها، ولكنه يتوقف ثم يكشر عن أسنانه ويتجه مغادراً المطحنة إلـــى

النهر . الأمواج تتلاطم والباب الطويل يسطع بضوء نهار متّرب.

– ٣ –

لملمت أختي القدور والأحذية المتناثرة، رفعت الثياب من وسط الغرفة وووضعتها داخل الدولاب القريب من الباب، جمعت الملاعق وأعادت الابريق المعدني إلى مكانه . بدت مجهدة وهي تجلس قبالة الدولاب، تنظر إلى وجهها في المرأة، فتحت الشرائط التي تجمع شعرها، فهبط إلى أماكن قريبة من الأكتاف وبعد أن سرحته جيداً، ارتدت معطفاً كانت قد احتفظت به داخل الدولاب، فحجب ثوبها الأحمر الذي زين بنقوش تشبه قطع النقود، أختي الأخرى التي تصغرني بعامين، نهضت من النوم، وجلست في حجر الأخت الكبرى، ألبستها ثيابا غليظة .. أمي تمضي منزعجة فيما بيننا بأقدام متشنجة وضفائر نحيفة، ففي أية لحظة كنت أتوقع أن تضع إحدى قدميها على رأسي من دون أن تولي ذلك أي اهتمام . ولكن خفة حركة الأخت الكبرى . جعلتني أنظر إلى جسدها الذي نما من دون أن أنتبه

لذلك، حتى أنني بدأت لا أفرق بينها وبين الأم، وفي أحيان كثيرة، كنت أمسك ثوب إحداهما متوقعاً أنها الأخرى، أو أتطلق برقبة الأخت الكبرى معتقدا أنها الأم . أمسكت هذه الاخت يدي بقوة واحتضنت أختي الصغرى، محاولة أن تهدئ من غضب الأم ولكنها كانت متجهمة الوجه، تجلس على كرسي من خشب خلف ماكنة الخياطة وتضرب دواستها بعنف.

في تلك الايام كانت مدينة (الطويّل)، أشبه بقرية . لا توجد فيها شبكة مياه، والنسوة يجلبن الماء من النهر الكبير الذي يمر وسط المدينة، وعادة ما يقضين وقتاً طويلاً بجواره يملأن الأباريق، ويتبادلن الأحاديث والأغنيات، لم تكن الشوارع الفرعية معبدة ما عدا شارع السوق والشارع المحاذي للنهر والذي يفصله عنه سياج حديدي . الأولاد يدفعون سياراتهم البلاستيكية على الشارع المبلط، لم تكن امي راغبةً بذهابي معهم ولم تكن تتركني لأخرج إلاّ مع ابنتها البكر، وهذا اليوم هو أول يوم مشمس بعد عدة أيام ممطرة . لا أعرف لِمَ كانت أمي غاضبة، لكنها لم تكن مكترثة لذهابنا الى النهر . تنقل الأخت الكبرى أختها إلى اليد الأخرى، وتنظر إلى الخلف منادية عليّ . سرنا على الشارع الاسفلتي، الأمواج تندفع فوق بعضها

بلون طيني، والأولاد يتراكضون بعشوائية وصخـب، يدفعـون سياراتهم البلاستيكية بقضبان قصب نحيفة، يتسلل إليّ غناؤهم المختلط كأنه خيوط حول جمجتي، ولأنني أمسك بثوب شقيقتي كنت أتخيل السيارات البلاستيكية تسير داخلة إلى نقطـة غـير محددة في رأسي .. القدور والثياب المرمية وسـط الغرفـة، الضحكات، صوت ماكنة الخياطة، كنت مندهشاً أراقب ما حولي كأني أراه للمرة الأولى حين اصطدمت قدمي بحجـر جعلني أهوي إلى الأرض الموحلة، ارتعبت شقيقتي وبـدأت تولـول خائفة من تأنيب الأم، ثم أخذتني إلى نهاية الشارع، دخلنا مـن فتحة في السياج الحديدي واقتربنا من النهر، أمسـكت يـدي بشدة، وطلبت مني بحذر أن أغسل وجهي وملابسـي، تركـت يدها، وبدأت ادعك وجهي بماء النهر البارد، أحسست بشـيء بدأ يجرجرني نحو النهر، أرتجف جسدي، واندفع نحو الأعلـى، لم اسمع في تلك اللحظة إلاّ صوتاً رفيعاً يتسلل مثل رصاصـة الى اذني، مكسراً الماء وزارعاً قوته في قدمي ويدي اللّتين لـم أفقد الشعور بهما تماما، لم اعد استطيع التفكير بشيء محـدد، واحسست بأن الماء يعرفني، لأني لم اخف وكلما حاولت النظر إلى ضفة النهر أتخيل أنه يسمح لي بذلك، ها أنا ازيحـه مـن

قبالة وجهي لأرى الناس الذين جلبهم صراخ شـــقيقتي وهــم يستعدون لرمي أجسادهن خلفي ولكنهم قبل أن يفعلوا توقفـــوا مندهشين لسرعتي في السباحة، ونظروا باســـتغراب لانفعـال شقيقتي التي كانت تحاول رمي نفسها خلفي . النهر كان هادئـاً ولكنه يحمل بقعا سوداً ورائحة لم استنشقها ســـابقا . علـــى حافة النهر شاهدتهم جميعا .. أصدقائي واخوتي وأبـــي والأمّ، يفركون عيونهم ويحركون أيديـــهم باتجـــاه وجـــهي وكأنـــهم يدعوني للاقتراب منهم.

## - ٤ -

اجتمع أغلب الأقرباء في بيتنا، جلس الرجال في الغرفة الطوّيلة التي بناها أبي في بداية هذا العلم، وجلست النسوة في غرفة نوم الأم، كنت اسمع أحاديثهن من وراء الباب، ولم تسمح لي أمي بالدخول (روح ويه الزلم) قالت ذلك وصفقت الباب . في الليل كانوا يفرشون لي في (الهول) وقبل أن أغفو تماماً كانت رائحة البخور تدخل إلى أنفي قادمة من وراء باب غرفة الأم، واسمع صوت ضحكات مكتومة، كلمات لا أستطيع فهمها، انقلب إلى الجهة الاخرى وأشاهد أمي تخرج صوب المراحيض، ارفع الأغطية إلى عيني، وفي الأغلب كان أبي في لحظة أحساسه بعودتها يحاول الخروج ايضاً، كنت أراقب وأفهم جيداً . بالتحديد لا أعرف لماذا اجتمع الاقرباء في هذا اليوم . ينظرون إلي داخلين إلى الغرفة الطوّيلة الجديدة ويكتمون أبتسامات غريبة، بعد ثرثرات وهرج ملأ البيت بسبب كثرة الضيوف الذين لم أشهد اجتماعهم هكذا سابقاً في بيتنا، جلب أحدهم كرسياً صغيراً ووضعه في باحة الدار . سمعت أبي

يصرخ بوجه أمي: (بسرعة الزلم كلهه جوعانـــــه) . جاوبتـه بغمغمة غير مفهومة فتقدم نافد الصبر اليها، لم اسمع بالتحديد ماالذي دار بينهما، غير أنها بعد ذلك ركضــت مســرعة الــى المطبخ . حملت الرياح ألسنة الدخان من موقد الحطب الــذي اشعلته امي وتعاونت اختي الكــبرى وإحــدى خــالاتي وكــن منهمكات باعداد الطعام وهن يتحركن بســرعة بيــن المطبــخ وغرفة الأم . كنت ألعب قرب باب البيت، حين لمحت مجموعـة من الرجال قادمين باتجاهنا، فركضت داخلاً، وحين دخل هؤلاء الرجال شاهدت أبي يقبل يد أحدهم ويحلف بـ (العباس اخــو (زينب)) طالباً منه أن يجلس في صدر المجلس ((وروح جــدك ما يصير)) يحرك أبي يده حاثــاً الرجــل الوقــور ذا الكوفيــة السوداء على الجلوس، بعد ذلك أمر أبي بنقل الطعام إلى غرفة الضيوف، اندفعت مع بعض الأولاد مــن اقربائنــا والجــيران، لحمل الصحون مسترقاً النظر الى سيد حميد الذي كان يتحــدث عن شرع الله محركاً يده بوقار شديد، وكان أبي في تلك الحظة واقفاً مشمراً عن ساعديه ويوجــه الشــباب وهــم يتنــاولون الصحون منا وكان يعمد الى وضع الأطباق المميزة أمام الســيد حميد الذي لم يكن منتبهاً الى امتلاء المائدة أمامه، بعد لحظات

حث أبي الرجال للتقدم إلى الزاد، فبدأوا يأكلون وكلهم بعد هذه الوليمة سيقومون بأعمال شاقة، لم ينهض أي واحد منهم بعد الأنتهاء، حتى أمر السيد حميد بذلك، وبينما خرج الرجال لغسل افواهم وايديهم، دخلت أمي وقد غطت نصف وجهها .. قامت بكنس كل ما تساقط على الأرض وقبل أن نوزع (استكانات) الشاي، أمسكني أبي من يدي، سحبني إلى منتصف الرجال، إذ كان يجلس السيد حميد، قرب فمه من إحدى اذنيه وقال: (هذا هو الولد) ثم وجه كلامه لي (بوس ايد السيد) وبعد أن قبلت يده وضعها فوق رأسي، نظر إلي ثم أدخل اصابعه بين فكيه وبدأ بسحب ما التصق من اللحم بين اسنانه وقال: ما اسمك يارجل ؟ صمتُ قليلاً ثم قلت له ( مـ ... محمد)، أبتسم ثم قال لي: (يلله .. روح ألعب ويه الجهال)، كنت أركض وراء أحدهم حين خرج الرجال من الغرفة الطويلة ووقفوا حول الكرسي، لم اشعر إلاّ وابي يمسكني من يدي ويجلسني بقوة على الكرسي، التفت الرؤوس حولي وأحسست أن السماء انحجبت عني وسمعت قلبي ينبض بشدة، بينما كانت الأمواج تتقدم من أسفل فخذيّ عالية وليس من السهل الخروج منها.

اقتربت النساء مني، كانت أمي بوجهها الضاحك في المقدمة، اثنان من الرجال أمسكا يديّ وآخر قبض على قدمي، السيد حميد أخرج قطعة قماش خضراء وبدأ يسير ناحيتي، كلما اقترب أكثر، ضغط الرجال على جسدي بقوة أكبر، قطعة القماش تنفتح ببطء حتى سقطت على الأرض فظهر مقص صغير أمسكه بيده اليمنى، رفع (دشداشتي) إلى مكان قريب من فخذيّ ونزع لباسي الداخلي، ثم مد يده إلى ذكري، أحسست بأنفاسي قد توقفت عندما سحب السيد حميد ذكري إلى الامام، قدم رأسه من الذكر . فتوتر قليلا، قال: (ما هذا .. ما هذا ..)، ثم بدأ يضحك، وجه نظراته الى أبي: (هذا الولد مطهر !!) تلاغط الأقرباء فيما بينهم، مدّوا بجرأة ودون حياء أيديهم إلى عضوي المنتصب، قلبوه مستغربين . صرخ أبي بوجه أمي: (من طهر هذا المعلون ؟.) ترددت أمي قليلاً أمام غضب الأب غير المبرر، ثم قالت: (حمودي من بطني طلع هيج)، لم يبدُ أن أبي فهم ما قالته، نظر إلى السيد حميد وهو يردد كلمات في سره ثم كبّر بصوت مرتفع أكثر من مرة بسم الله وتلا آيات من القرآن الكريم حول رأسي، سحبت (دشداشتي) خجلاً واخفيت فخذيّ . ثم دنا السيد حميد مني، قبلني ووضع في جيبي

درهماً، رفع رأسه الى الجميع وقال: (ياجماعـــة هــذا الولــد مطهرته الملايكة)، ارتفعت الصلوات والزغاريد، هبـــط علـــيّ حشد من الأقرباء بقبل لا يمكن حصرها.

ـ ٥ ـ

اصبحت قادرا على التجول في أماكن بعيدة عن البيــت، دون أن تواجهني أمي باستفساراتها عن غيابي، عرفت أشــياء كثيرة لم يكن لي علم بها، ومن ذلك أن المطحنة التي تتوســط المدينة وتحاذي الجهة اليسرى من النهر بنيت علـــى أنقــاض يقال إنها بقايا قرية قديمة، حتـــى أن الحـــاج حســون تــاجر الحبوب، قيل انه كان يحفر فيها وعثر ذات مرة علـــى عظــم غليظ كانت تحيطه سلسلة ذهبية، وبعد مرور ليلتين أشيع بيــن أهالي مدينة الطويل بأنّ ثمة عظاماً كثيرة تتجول بعد منتصــف الليل، وهذا ما دعا أغلب رجال المدينة إلى اقناع الحاج حسون بإعادة السلسة إلى مكانها والتوقف عن نبش الأرض المجاورة للمطحنة . ولكنْ ما أثار ثائرة الحاج حسون ثرثـــرة النســوة اللواتي يملأن صفائح النفط من المركب الصغـــير لســليمة أم

النفط إذْ كنّ يشعن بين الناس انها أكدت فقداتها لسلسلة ذهبية كانت قد اقتنتها ليوم زفافها، ورغم تردد هذه الأقاويل لكن الحاج حسون لم يكترث لذلك، أبناء هذه المدينة لا احد منهم يعلم من هي سليمة أم النفط، كانت مع قدوم كل شتاء تجلب مركبها الذي يشبه سفينة، وتجوب الأهوار، والقرى، حتى المدن المحاذية لها، تبيع النفط باسعار منخفضة، وتحلم أن تلتقي بمن ليس له علاقة بالنفط لعله يأخذها إلى أرض اليابسة وينهي حياة التجول في الماء.

كنت قريبا من مركبها عندما تكلم الحاج حسون معها بلطف عن تلك الشائعة التي تتردد على اغلب الألسن، ولكن سليمة ام النفط صرخت فاجتمع على أثر ذلك أغلب المارة، وتدخل بعض الوجهاء لوقف النزاع، وما جعل كفة سليمة ترجح هو اخراجها بحضور الجميع سلسلة ذهبية مشابهة لتلك التي كانت بحوزة الحاج حسون.

وبعد ايام من مغادرة مركب سليمة ام النفط ترددت شائعات بأن سليمة تخرج من المقبرة القديمة هي ومركبها مع قدوم كل شتاء.

كذلك التقيت بشخوص لا يربطني معهم أي شيء، ولم اشاهد ثياباً كثيابهم، واستغربت لتسميات لم آلفها، وحرف لم اشاهدها سابقاً، مثل حداد، أو نجار، واضحكني كثيرا مشهد رجلٍ يمسك مقصاً وينحني على رجل آخر جلس على كرسي خشبي قبالته بدا من حركاته العنيفة والعجولة كأنه يريد نزع جلدة رأسه . فيما بعد عرفت أنَّ هناك طريقاً وحيداً يربط مدينتنا بالمدن الكبيرة، ولكنه لا يستمر الى القرى التي تحيط بمدينة (الطوّيل) .. هذه المدينة لم أكن اعلم من اين تبدأ والى اين تنتهي ولكنني عرفت أنها محاطة بقرى صغيرة، وانها نهضت على انقاض قرية (الكفاخ) التي انزلت عليها السماء نهراً من الرمال . بعض الرجال كبار السن قالوا ان هذا المكان كان يدعى (تل أم الذبّان) ولم يشر أحد متى كان ذلك.

أنا لا أريد أن أعيش وحيدا، بعد أن كان معي حشد من رجال يلتفون حولي ويبعثون لي بنظرات تدفع الماء بعيداً عني، ولكني لم أعد اسمع أي شيء بعد نزولي إلى النهر، عرفت أنّ الموتى لا يخافون، ولكن ما أن نزلت، حتى شاهدت حشداً من رجال يحيطون بجسدي . كثرت الاهتزازات، وشارف كل شيء على الذبول، كانت لهم عيون تخرج منها الأسماك

وأنوف طويلة تحمل رائحة العشب .. انا مازلت حيـــا لأنـــي أشعر بحركة النملة على أصابع قدمي، وكنـــت أعــرف مـــالا يمكنني أن أعرفه الآن، كمعرفتي بقرب موت النهر الـــذي لـــم يحاول مصارعة أصابعي، فالنقطة التي انطلقـــت منـــها هـــي بالتحديد تلك التي بإمكانها أن توضح أن كنت أحمل اسما غـــير الذي أحمله الآن أو أنني مررت بمراحل لا يمكنني معرفتـــها، فقد فقدت الكثير مما اريد ان اقوله هذه الأيام، حتى لا يوقظنـــي صوت ماكنة الخياطة ولا وصايا الأخت الكـــبرى . ان حيـــاتي ليست ما يجري لي وأفطه الآن، ومع ذلك لم أصرح بذلك لأحد خلال عشرة الأعوام الماضية والتي هي بالتحديد سنوات حياتي بالنسبة لهم، وما اجهدت نفسي من اجله هو ان أكون الابـــن الصامت المنزوي في غرفة على سطح الدار، أشاهد من خـــلال نافذتها أكواخ القرى كأشباح وأستنشق غليان رائحة الحقول.

## - ٦ -

كلما كنت اتجول على الشارع الاسفلتي، كان يسحبني صوت يأتي من حافات السياج الحديدي وكأنه .. عجوز يحتضن النهر، يدفع به إلى اماكن بعيدة . أصوات أخرى يخرج صراخها من ثقوب اتسعت بمحاذاة الاسفلت جعلتني أدرك أن الرجل الذي يدعي شمخي هو أبي، حليق الرأس، له جسد نحيف، دائماً عندما يتكلم يظهر لسانه خارج فمه ليغطي أسنانه التي أكلها التسوس، يحمل معه عصا لها قوة الحديد، ويحتفظ بمقولات، وأمثال كثيرة غالبا ما كان يطلقها على بعض الأحداث الطارئة والتي تحتاج إلى أدلة تعززها، يمتلك طريقة فريدة في رواية الحكايات وتأليفها، وهذا ما جعل وجهاء مدينة الطويل يحضرون مجلسه، كلما غزا الليل أطراف المدينة، فليس هناك ما يسلي الرجال غير هذه الأشياء العجيبة التي تخرج من فمه، ولأن أغلب الحكايات ساخرة وتهتم بمشكلات الزواج والنساء كان أغلب هؤلاء الرجال ينصتون باهتمام له.

- ٧ -

عندما طلبت مني أمي الذهاب إلى السوق لجلب خيوط لماكنة الخياطة سرت مسرعاً في الشارع الرئيسي المبلط، وانحرفت بعد ذلك إلى الفرع الذي كانت تـأخذني فيه أختي الكبرى لجلب بعض الدفاتر والحاجيات من صديقة لها . هذا الشارع يؤدي إلى طريقين، أحدهما يمضي باتجاه النهر والآخر يذهب الى سوق الخياطين والذي يعد المدخل الحقيقي لسوق الطوَيل، يوجد اكثر من عشرة محال تتوزع على الجانبين، أغلب أصحابها يجيدون خياطة الدشاديش والسراويل فقط، والذي يمر من قبالتهم تملأ أذنيه أصوات المكائن، توقفت قرب الواجهة الزجاجية لأحد محال الخياطين، كان أحدهم يبدو عجوزاً ناشف الجلد يُنزل شريط القياس على جسد أحد الرجال، يمرره على الكتفين والخصر ويقيس الطول، شاهدت الخياط العجوز يقرب أصبعه الطوَيل من مؤخرة الرجل .. تكلم بعجالة بضع كلمات، ثم ارتفع منهما ضحك حاد، كان بإمكان أي احد

يقصد هذا السوق أن يحصل على الاسلحة والشـــاي والقـــهوة والزوارق والعتاد وأشياء أخرى.

بعد خطوات قليلة من دكاكين الخياطين تظـــهر محـــال كبيرة لبيع القماش، ثم سوق الصابئة الصغير الذي يبيعون فيه المناجل والمحاريث والاعمدة، حتى ان بعضــــهم تــرك مهنــة الصياغة التي يشتهرون بها، وأخذوا يتفننـــون فـــي صناعــة الزوارق وطلائها بالقير، واعتبارها مصـــــدر العيـــش الأكـثر أهمية. يوجد دكان واحد لبيع الناموسيات والصناديق . وهنـــاك في نهاية السوق، قريبا من الشارع العام تصطف ثلاث قنفـــات يجلس عليها رجال يلعبون الدومينو وآخرون يحركون الملاعق الصغيرة في اكواب الشاي، وحين تصبح بمواجهتـــهم تلاحـــظ رقعة معلقة أعلى جدار غرفة مظلمة كتب عليها (مقهى الحـــاج عبد)، هناك اشاعات تؤكد بأن، عبداً لم يذهب إلى الحج نهائياً، سمعت مرة أحد الأولاد يقول ان أباه حذره من الدخول إلى هذا المقهى، لأن الحاج عبد ضبط أكثر من مرة في الغرفة الخلفيـة للمقهى بوضع مريب ومعه بعض الأولاد، دائما يضـــع قطعــة قماش بيضاء حول خصره، ضخامة جسده وســـرعة حركاتـــه توحي بأنه يمتلك قوة وعناداً تخيفان أغلب رواد المقهى.

على بعد خطوات من المقهى شاهدت بـــاب المســجد الكبير مفتوحاً، ومن أمام الباب لمحت الحنفيات المصطفة تظهر في البعيد، بعضهم يقف قبالتها، رجال رفعوا اردان دشاديشــهم إلى نهاية الأذرع، هذا الشارع هو الشارع الثاني المبلــط فــي المدينة . لا أعلم من اقترح أن يبني هذا الكم من الدكاكين على جانبيه حتى ينتهي قبالة النهر بأمتار قليلة . في هذا المكـــان توجد زوارق بأحجام وأشــكال مختلفـــة، يربطـــها الفلاحـــون القادمون من قرى الهور بسلاسل غليظة إلى الجدار الحديــدي، كنت أتمنى أن آخذ أحد هذه الزوارق وأمضـــى إلـــى أعمـــاق الهور، ولكن علاوي بن جماغ، والذي أسموه فـــي مـــا بعــد (البذك) لقصر قامته ومعه قاسم ابن رتبه الخبازة، لـــم يــهتما لكلامي واعتقدا أنني أمزح معهما، وحتى أن أحمد بن نـــاصر الحايج لم يعر أي أهمية لكلامي، ومحاولة اقناعي له بضــرورة الذهاب لمشاهدة ماء الهور، تحدث معي ثم تركني وذهب حيــن عرف أنني أنوي أن أصحبه إلى تلك القرى التي لا يصلنا منها غير الحكايات، وأصوات اطلاق الرصاص.

قبل أن ينتهي، ينقسم شارع الســوق إلـــى طريقيـــن: أحدهما يتجه إلى مدرسة الطوّيل الابتدائية، وآخر يعــود إلـــى

الشارع العيلط المحاذي للنهر . في مفترق هنيــن الشــارعين يوجد دكان حميدك الأخرس، وهو من أشهر حلاقي المدينــــة، يخافه أغلب الأولاد لأنه قبل أن يفتتح المركز الصحي كان هــو الوحيد الذي يعالج أغلب المرضى، ويجيد ختان الأولاد . بجوار محل حميدك الأخرس بعدة أمتار يوجد محل وســيلة المملــوء بالملاعيب والحلويات، ورثته عن أمها (ثنــوى) التــي كــانت أغلب أيام شبابها في هذا الدكان، تأكل بداخلــه وتضــع عـدة صناديق لا يعلم أحد ما بداخلها ولكن قيل ان كــل مــا تملكــه موجود فيها . في الأيام الأخيرة لحياتها، وبعد أن ضعف نظرها كان أغلب الأولاد .. يغشونها بنقود مزيفة، يصنعونــــها مــن التنك أو السيفون ولكن وسيلة ... عرفت من اول كلمة لي مـــا تحتاجه أمي من خيوط، وتعقت لفترة ليست بقصيرة بالعملـــة النقدية التي أعطيتها لها، كنت مسحوراً برغبــــة لا تريــد أن تفارقني: كيف لي أن أحصل على زورق صغير يحملنــي إلــى النهر بسهولة لأشاهد مياهه ؟.

## ـ ٨ ـ

بعد أن عرف أحد اقربائي بولعي في الحصول على زورق جلب لي زورقا كان مهملا لديهم، وقال لأبي: (هذه هديتي لحمودي لمناسبة الطهور)، خصوصا وهو يعرف أنني قد ختنت من قبل الملائكة، كان الخبر قد انتشر في أرجاء المدينة حتى أن بعض الجيران والأقرباء تكلموا عن ذكري بقدسية، وفي أحد المرات جاءت احدى النسوة طالبة من أمي أن تعطيها قليلاً من بولي في طاسة صغيرة، لم أعرف بعد ذلك ما الذي فعلته بالضبط بطاسة بولي الساخن . كانت هناك هدايا مختلفة جلبها بعض أقربائنا، كيس طحين وصفائح تمر مكبوس. بعضهم أتى بخراف، وآخر دق الباب الرئيسي سلحلاً خلفه جاموسة صغيرة.

بعد أن شاهدت الزورق أخذه أبي الى زهرون الصابئي، واقنعني بإخراج مدخراتي التي جنيتها خلال الأيام الماضية، كنت مع ابي وهو يكلم زهرون عن ضرورة ان يطلي الجزء الملامس للماء بالقير، ويصلح العيوب التي فيه . شرع زهرون

بإصلاح الزورق وامضيت ثلاثة أيام جالسا بجوار (شريعة زهرون) القريبة من مدرسة الطويّل الابتدائية . كان زهرون طويلا وذا أصابع غليظة، في الأغلب كان يعمل عارياً إلاّ من سرواله الداخلي، يدخن كثيرا، ويحب صنع المقالب وتبادل النكات لاسيما مع بعض الرجال الذين يساعدونه في العمل . لم يعر أي اهتمام لتواجدي ولكنه عندما يوزع الشاي كان يجلب لي كوبا ويضعه قبالتي وقبل أن نحرك الملاعق الصغيرة في الشاي . يكون قد شرب أكثر من رشفتين، كلما انتهى من واحدة يقول (خوش جاي مال صبه)، نشرب الشاي ضاحكين، بينما اقدامنا تغط في الماء.

بعد أيام انتهى زهرون من اصلاح زورقي وطلائه بلون أسود قاتم، رفع زهرون الزورق بمفرده وأنزله إلى الماء، ثم نظر الي وقال: (بلباكيت وين تريد روح ما عليه أي شي) . أمسكت الغرافة مزهوا ومثارا، وتذكرت حكاية تلك المرأة التي كانت مع عشيقها في الجانب الآخر من النهر، عندما علم (المعيبر) ذلك امتنع عن توصيلها إلى كوخها فجلست على الجرف تغني:

يمعيبر ولك عيرني

ترجية الك عبرني

دينار وربع عبرني

أحس ابني بجة

أحس رَجلي حجة

لكسر دوستك عبرني

كلشي انطيك بس وصلني

عليك الله تجي اتعبرني

بس عبرني

يامعيبر ولك عبرني

رددت هذه الأغنية وأنا أنفخ وجنتيّ وأقف كهيئة المعيبر . صعدت الزورق وجنفت بقوة، حتى أنني حين التفتُ لم أعد أشاهد زهرون . المجاذيف كأنها التصقت بيدي، كنت أمر بجوار الشارع الاسفلتي عندما شاهدني الأولاد تفاجئوا وبدءوا يركضون سريعا بمحاذاة الزورق، بعضهم أطلق صفيراً عاليا وآخرون أطلقوا صراخا ولوّحوا لي بالتوقف، ولكنني في بادئ الأمر لم أعر لصراخهم أي أهمية، حتى رماني أحدهم

بحجارة فسقطت بجواري، حين توقفت عند جرف النهر نزلـــوا بسرعة وحذر إلى الزورق، جذفت بصعوبة وانطلق الزورق بنا وئيداً بإتجاه الجسر الخشبي الذي يقع قبالة السوق الصغـــير، مررنا من بين الدوب، بعض الاولاد صرخوا حين تحسسوا بأن سيارة ما كانت تمض ببطء فوق الجسر، لم تمض ايام طويلـــة على انشائه لكنه لا يحتمل غير سيارة واحدة ولا أعلم لماذا لـم يضعوه قبالة سوق الطويل الكبير ووضعوه صوب الشارع الذي تسكنه صديقة شقيقتي، أسموه بعد ذلك (شارع القيصريـــة أو السوق الجديد).

انشأت فيه بعض المحال منها محل أم طيره البقالـــه، ومقهى صاحب جاسم، الذي اتخذه المعلمون والموظفون فـــي المدينة مكان استراحة لهم، واحتل الصبيـــة مـــن (القمرجيـــة والعربنجية) اغلب كراسي مقهى الحاج عبـــد، ومـــن ضمـــن المحلات التي انشئت في شارع القيصرية، محل حلاقة الســـيد حميد، وعطارية زاير غانم، ومحل قصابة كريم الكصاب . كانت لي رغبة بأخذ الأولاد إلى الجانب الذي يذهب منه النهر إلـــى قرى الهور، ولكنهم عندما علموا بذلك خافوا، وكنت اضحـــك، حتى أن علاوي البذك حلف أنه لن يصعد في هـــذا الـــزورق

ثانية . وكان أول من نزل من الاولاد، عندما وصلنا قبالة بيوتنا ركض مهرولا بدشداشته المقلمة ثم نزل من بعده باقي الأولاد . ربطت الزورق بأحكام إلى السياج الحديدي ونزلت إلى الجرف متأملاً ابتعادهم الحثيث. بعد هذا اليوم لم يصعد أي من الأولاد معي رغم كل ما قدمته لهم من اغراءات عن وجود دجاج الماء طافيا بجوار القصب والبردي، أو الذهاب إلى أعماق الهور، إذ أن الماء أزرق هناك، ولو رميت فيه عملة معدنية يمكنك مشاهدتها وهي تنزل ببطء حتى تستقر على الطين وتعرف إن كانت قد استقرت على وجه الكتابة أو وجه الشمس . كذلك في هذا المكان بامكاننا ان نشاهد الأسماك الكبيرة تسبح، أما الأسماك الصغيرة فتمضي في الماء على شكل أنساق، وكأنها طيور محلقة في السماء . لم تنفع اغلب الأغراءات التي كنت من خلالها أحاول أن أخذ الأولاد لنبتعد قليلاً عن مدينة الطوّيل . كذلك تكلمت لهم عن القرية التي غطاها الهور ولا تظهر إلاّ مع بداية اليوم الأول للربيع، تحيطها المصابيح من كل جانب وتخرج منها أصوات خشنة تردد أناشيد بلغة لم يعد أحد يفهمها، وهناك زورق ممتلئ بالذهب والياقوت، بإمكان من يصل إليه ويلمسه ان يصبح

بذلك صاحب كل هذه الكنوز، ولكن أغلب القرويين يخشون هذا المكان، ويسمونه (مقبرة الشياطين).

تكلمت لهم عن محمد ابن سيد وحيد الذي قيل إنه وصل إلى مشارف هذه القرية وقبل أن يصل إلى الضوء أحس بان زورقه بدأ يحتك بصخور، فمد يده واقتلع ثلاثاً منها، ولكن القرية بعد لحظات اختفت، ولم يكن من محمد ابن سيد وحيد إلاّ أن يعرض (الفرشي) على أغلب أبناء مدينة الطوّيل ووجهائها. ولكن بعض الناس كذبوه وقالوا: ربما تكون هذه واحدة من حكايات شمخي . ويوما بعد آخر، كلما دعوت الأولاد إلى شيء، تجاهلوني وأسرعوا هاربين من أمامي . كنت أتكلم وأتمنى أن يأتي معي أحد . حتى وجدت نفسي وحيدا مع غليان رغبتي أمضي بزورقي إلى أعماق الهور وأكلم القصب، أبحث عن المصبات البعيدة، وأتمنى أن أصل إلى القرى البعيدة، وما عرفته خلال تجوالي ان المدينة محاطة بأربعة أنهار: النهر الاول الموجود قبل بداية الشارع المبلط بقليل يشق الأرض بموازاة عرض المدينة يسمى نهر التركية، يصب في بداية نهر آخر يكون موازياً لطول المدينة يسمى نهر اللواحة يصب هذا الأخير بشط (أبو جصانة) ويقال انه سمي بهذا الاسم بسبب

دخول سمكة كبيرة فيه تدعى جصانة، اكتشفها أهل قرية أبي جصانة عندما شاهدوا البط الذي يسبح عادة في النهر يغطس فجأة كأن أحداً ما كان يسحبه من أقدامه الى داخل النهر ويختفي، وقيل إن سمكة الجصانة أكلت بالإضافة إلى أعداد كبيرة من البط والخضيري وأم سكة ثلاثةً من أطفال القرية، وسحبتهم اثناء السباحة او الأغتسال إلى أعماق النهر.

أغلب هذه الأنهار الصغيرة تصب في شط الطوّيل الكبير، والذي سمي بهذا الاسم لانه رفيع وطويل، لتأخذ المدينة في ما بعد اسمها من اسم النهر . كان حصولي على زورق دفعاً غريباً باتجاه هواجسي عميقة الغور، وحين أعود تلاحقني نظرات فتاة اعتادت أن تخرج من كوخها وتترقبني وكأنها تعرف مواعيد ذهابي وعودتي . أكثر من مرة أردت أن ألوح لها، أو اقف بجوار الكوخ الذي تجلس بجواره . نظراتها كانت تمضي معي أينما ذهبت، وشعرها الذي يشبه الموج، كأنه مربوط ما بين اعمدة القصب، أشاهد صورتها تتضخم على وجه الماء وتمتد معي أينما ارتحلت، كيف لي ان اكلمها وانا لم أعد قادراً إلاّ على محادثة الماء ؟.

## ـ ٩ ـ

في ساعات الصباح الأول طرق باب منزلنـــا بقــوة . عندما فتحته وجدت السيد مدير مدينة الطويّل ومعه رجل قصير له شعر أشقر وحولهما رجال عسكريون مدججون بالأسـلحة . رجعت خطوتين وقبل أن أتفوه بكلمة قال السيد مديـــر مدينـــة الطويّل: (عمو .. أبوك موجود بالبيت ؟.) ركضت باتجاه غرفة الأم، فخرج أبي وهو يرتدي دشداشته، ثم رحب بهم وأدخلـــهم إلى غرفة الضيوف، بعض الرجال المسؤولين عـــن الحمايـــة تسلقوا جدران البيوت المجاورة ووجهوا فوهات بنادقهم إلــــى الشارع العلم، والبعض الآخر وقف قبالة الباب . ورجل ضخـــم وقف خلف ظهر السيد المدير العام، كان أبي يتحرك بطريقــــة غريبة، انزل المنادر الجديدة والوسائد وطلب مـــــن أمـــي ؟أن تحضر القهوة، وكذلك الشاي والماء . قال لهم: (حضراتكـــم ... متريكين)، الرجال الذين يقفون فوق سطح الدار بدأوا يتبادلون إشارات لا أعرف مغزاها وينظرون الى البعيد، . لم أشاهد أحداً منهم يشعل سيجارة أو يبتسم، أصابعهم قريبـــة مـــن الزنـــاد،

كانت هذه الصلاة هي الأكثر خشوعا وبكاءً من قبل الملكة، طلبت خلالها من السماء أن تنذر نفسها لها مقابل أن ترزقها بزوج يخرج من ضوء القمر قالت: ٠(ان النهار لعنة .. الهواء لعنة .. والماء لعنة .. القمر وحده يشعرني بالسكينة، أريد زوجاً من نسخ القمر .. لا أريد مخلوقاً من طين وماء)، ألحت بالدعاء وبكت وبكى حولها الرجال وسالت على خدودهم دموع من طين وماء.

كان أبي يتحدث والرجل الأشقر يحرك حاجبيه بطريقة تنم عن انفعال . أما السيد مدير مدينة الطويل فكان يحاول أن يلوي بعض شعيرات شاربه من جهة اليسار . كان أبي وهو يتكلم يمثل المشهد منفعلاً ويضرب الأرض بقبضة يده اليمنى مستمراً مع حكايته:

بعد ثلاثة أيام من الصلوات المتتالية وبينما كانت الملكة تتجول فوق سطح القصر ليلا، وتتألم للمنازل المظلمة والتراب الذي يعانقها، شاهدت بوضوح خيوط ضوء تنزل ببطء من القمر، لم تكن تعلم ما الذي كان يجري، ولكن الضوء هبط بجوارها ببطء، تحسست برودته تتسلل إلى أضلاعها، حركت عينيها .. لتتأكد مما تراه، ولكن الضوء بدأ كأنه يريد

معانقتها. هناك روايات تقول انها أغمي عليها واخرى تقـــول انها شاهدت قبالتها رجلا طويلا بجدائل للركبتين يمتلك جمالا لا يمتلكه رجل من قبله، انحنى عليها وعانقها . يقال ان ســـكان مدينة الطويل جميعهم ينحدرون من صلبـــه، ولـــهذا ســميت المدينة بالطويل لأنه كان يمتاز بطول القامة وضخامة الجســد، ومنذ ذلك اليوم البعيد حرم رجال الديـــن اســتعمال وصناعـــة الدمى باعتبارها أداة للكفر والشرك بالله . ساد صمت قليل ثـــم روى أبي حكاية أخرى لم استمع إليها جيدا بسبب جلبي لبعض اكواب الشاي مرة أخرى، وكذلك جلب الماء الســـاخن لغســل أقدام الضيوف، كان أبي يتكلم عن أشياء لم أسمع بها ســـابقاً، وفي اللحظات الاخيرة سمعت الســيد المديــر يطلــق شــخيراً منخفضا، لم يعد أبي ينظر اليه أثنـــاء الكــلام، كنــت أســتمع وتتنامى في داخلي رغبة بان آخذ هذا الرجل الأشقر معي إلـــى الهور ليشاهد الفتاة التي كانت تترقبني كلما ذهبت إلى هنـــاك، فربما تكون هي ايضا من أحفاد الملكة التي تزوجت من ضـــوء القمر، أو ربما كانت هي الملكة نفسها.

## - ١٠ -

استيقظت على صوت زغاريد ودفوف كانت كمطـــارق تدخل الى أذني . كلما انقطع صوتها قليلاً تكررت مرة أخـــرى بالقوة ذاتها، وبذات النغمات الصادحة . لم أعر ذلك اهتمامـــا في بادئ الأمر، حتى وصلني صـــوت مغـنٍ يخـترق ضــرب الدفوف. تركت فراشي وتوجهت إلى الباحة الكبيرة في منتصف المنزل، لم أشاهد أمي أمام باب المطبخ ولكنني تفاجأت بـأختي الكبرى تجلس مكانها وترتدي ثوبها الأحمر الذي جعلني أتـردد في الحديث معها . اقتربت منها وفكرت أن اسألها عـــن هـذه الأصوات، نظرت إلي كأنها تلومني (أنت لا تعرف شيئاً عمـــا يجري في البيت) تخليت أنها ستقول ذلك: (سارح وية البلم من الصبح لليل)، كان وجهها كظيماً، نهضت ثم دخلت الى المطبخ، خرجتْ بعدها وهي تمسك بصرة من القماش، وضعتها فـــوق رأسها، ومن دون أن تعيرني أي اهتمام سارت مسرعة باتجـاه الباب الرئيسي، حين وصلت غرفة الضيوف ألقت نظرة جانبيـة إلى المكان الذي كانت تخرج منه أصـــوات الزغـاريد . فـــي

الجانب الايسر من ساحة البيت لمحت الكرسي الخشبي الـــذي جلست عليه يوم ختاني، لا أعلم من الذي قام بتكسيره، ولكــن ثمة أجزاء منه غير موجودة، ربما لم أعرف الكثير عما يــدور في البيت حقاً، خرجت امرأة تشبه تلك المــرأة التــي أطلقــت الزغاريد يوم ولادتي، أصابعها تغطيها خواتم فضيـــة كثــيرة وترتدي فستاناً أحمر فضفاضاً، يمكن من خلاله مشاهدة الثوب الخفيف الأسود الذي يلتصق علـــى جســدها فتتضـــح بعــض تفاصيله . كانت تريد أن تقترب من المطبخ، حاولت أن أقـــف قبالتها ولكنها انحرفت إلى إحدى الجهات، كررت ذلـــك مــرة أخرى ولكنها غيرت اتجاهها إلى الجهـــة المعاكســة أيضــا، صرخت بوجهها:

ـ ماذا تفعلين في بيتنا ؟.

ـ أنا مع العروس.

ـ أي عروس ؟ .

ـ العريس موجود في غرفة الضيوف.

قالت ذلك وهي تضحك مبتعدة.

ـ ماذا يفعل ؟ صرخت وأنا اتبعها ثم توقفت فسمعتها تقول:

ـ يرقص.

ـ قالت ضاحكة من جديد

ـ (شبيك روح يم أبوك، باركلة ..) وسلم على العروس.

حاولت أن اشاهد أمي في تلك الحظة ولكنني كنت أصادف تلك المرأة أينما ذهبت، تحمل بعض الأكواب المملوءة بالشاي وتدخل إلى غرفة الضيوف، أحسست نفسي وحيداً وأنا أقف في منتصف الساحة الكبيرة، ارتفع صوت المغني ومن خلال النافذة شاهدت رجلا يرقص في منتصف الجالسين . كانت لي رغبة أن أصرخ لماذا يفعلون ذلك ؟ .. أليس هذا بيتي ؟.

ببطء سرت باتجاه غرفة الضيوف .. توقفت في منتصف الباب، تفاجأت بأن أبي كان يجلس بجوار تلك الفتاة التي كانت تترقبني كلما عدت بزورقي من الهور، يمد يده ضاحكا الى أكليلها الذي يغطي رأسها، كانت صامتة كعادتها، وحين استغرقت في نظري الذاهل والمنكسر إليها، شاهدتها ترفع رأسها وترسل باتجاهي تلك النظرة نفسها التي كانت ترافقني فوق سطح الماء، ضربت الباب بقوة وانفعال عدة

مرات، لم أشعر بنفسي كنت أشبه بمجنون، يداي تنزان بـألم شديد . لم أعرف ما الذي فعلته، ولكني حين رفعت رأسي من نوبة الجنون التي اعترتني كانت اغلب الدفوف قد توقف ضجيجها، كذلك الغناء، الذي كان يرقص توقف وركض مذعورا ليجلس خلف المرأة ذات الخواتم الفضية .. مددت يدي الى أحد المجاذيف الموجودة خلف الباب، وحين استدرت تفاجأت بأبي وهو يمسك كتفي بقوة، حد النظر إلي ولكنني تمكنت من الإفلات، قال بصوت مرتفع: (وين رايح ؟)، لم أتمالك أعصابي في تلك اللحظة ونزلت الدموع بغزارة وكان ثمة عواصف تريد ان تخرج من عيني، صرخ بوجهي محاولا امساكي وتهدئتي، (ماذا تريد أن تفعل ؟) . ساد الصمت قليلا بيننا ولكن قبل أن أخطو مبتعدا نظرت إلى وجهه الحليق مليا، كانت العروق والتغضنات تبرز فوق جبهته المنكسرة، أحسست بأنني أكلم رجلا لم أعرفه سابقا . قلت وأنا أفلت من يده مبتعدا: (أطمئن أنا ذاهب لأشاهد الماء .. أنا ذاهب فقط).

# الفصل الثاني

# رجل طويل بجدائل للركبتين

— ١ —

كيف لي أن أقف بمواجهة الكوارث وأسير في ظلامها، أتلمس أحرف الموت وأبني الخرائب المنتشرة في أحشائي ؟ كيف لي أن أحتضن الشمس وأسكن في ضوئها ؟ كيف لي أن أحاورها وأحرس الهور وابتسم في وجه نباتاته ؟ كيف لي أن أعرف ممراته وأمسك السراق، أضع جسدي في النهر ليعتاد الماء، أبعث بالضوء إلى الأكواخ ؟ كيف لي أن أرعب الماء وأنمو كالقصب، أحافظ على رأسي وهو ينظر إلى الأعلى، أسير في الهور ليصل الماء الى سرتي ؟ كيف لي إلاّ اتكلم، أنام بين قطيع الجاموس، لأمسك اسلحتي واقف على مقربة من الموت ؟ أريد أن أحاربه حتى استخرج من فمه كل الذين أحبهم.

## ـ ٢ ـ

بدأ يشعر بأن قوة غريبة تسير في أضلاعه، تحمل نارا بإمكانها أن تحرق الجسد، قوة تشبه أن تضع حديــدا بجــوار العظام وتضع خشبة مكان القلب، ربما الدم هو الــذي يجــري أشبه بنهر غاضب، يتضخم الرأس مثل حجرة كبــيرة، والأذرع تأخذ قوة وطول أغصان شجرة عملاقة، بينما أقدامه اخــترقت حدود فراشه بأكثر من ثلاثة أمتار، تحسس أن جسده أخذ شكلا غريبا لا يمكن أن يستوعبه، يتلمس حدود الأسئلة، يتحســس شخصا ما في داخله يرمي بالماء والشمس والطيــن، لتعجــن جسده وتولد قوتها في أحشائه، مرت علــى أذنيــه كلمــات لا يعرف من الذي قالها ولكنه حفظ بعضها، مثل صــوت اغنيــة متقطع يخرج من أماكن مجهولة ويرافقه أين ما وضع رأســه، ومنها هذه الأشياء

- انهض وإلاّ ستأكلك الكوارث
- لا تخف أخط، إنه الماء ذاته

- لا تتكلم عما جرى لك هذه الليلة
- لا تخف إنه جسدك

كلمات كثيرة ليس من السهل أن يخفيها، كـــان يشـــعر بأنها تخرج من الشرايين وكأن شخصا ما ينام فـــــي جســـده، يرمي بقوته عليه، يرمي بصبره وجنونه، يرمي بتاريخ ليـــس من السهل معرفته . هناك أشياء لا يمكن تحديدها فيه، كأنـــها اوراق لم تترك منها النار غير حروف من رماد، تجـــري فـــي دمه أو برأسه، تنمو بقوة الزجاج . ماذا يفعل خليّل بن عويـــد بصراخه وقد اجتمع بقوة عاصفة واستقر في الحنجرة، مـــازال نائما، لم يكتشف ما جرى ولم ينظر اليه بعينيه اللتين أصبحتـــا تشبهان الكرتين، ولكنه أدرك الخطوات وشاهد ظلا ابيض يشبه القماش يلتف حول جسده ولكن ليس بإمكانه أن يفعل شيئا.

يأخذهم القلب باتجاه النبض، يسيرون في الدم مثل جنود، غالبا ما يسمعه القرويون يطلق صراخا من أعماق الهور، تبتسم لـه الشمس وتخفي النباتات رؤوسها بعيدا، زوارق الصيد تتوقـف والقصب ينتصب مثل أجساد أولاد لم يعانقهم الماء فهو لا يحب التحدث إلاّ مع جواميسه، يجلس فوق ظهر جاموسة مرددا:

الحاد ... حاد ... حاد ... حو
ويردد خلفه قطيع الجواميس
الحاد ... حاد ... حاد ... حو

يخلع البردي، يمرغه بالأرض ثم يتركه ليلة أو ليلتيـن في الماء بعد ذلك يأتي بالسدر، يضعه على ظهور الجواميـس ويبدأ بتنظيفها، دائما ينام القطيع حوله، في إحدى الليالي حاول أحد الكلاب المرور بين الجواميس، تعالى خوارها وبدأن بالنفخ عليه . الفوضى عمت المكان وفي صباح اليوم التـالي وجـد عويد قرب فراشه جثة الكلب، الذي داسته الجواميس.

يتحسس ان رجلا آخر يخرج من ظلـه ويتجـه إلـى الشمس . وأجساد تشبه ظله تهبط بضوئها فترتعش الحقـول

ويزداد مخاض الأرض . من خلف كوخه يشاهد الحياة ويبني أحلامها، يبعث الأسئلة إلى حافة الضوء، لتتبخر الأحلام وتستقر الطمأنينة في القلوب . فتخضرّ الأرض وتولد لغتها بجوار الجداول، يهز رأسه للشمس فتنحني مبتسمة آخر النهار، تضع أجنحتها في الأفق البعيد تاركه الضوء في أحشاء عويد يضيء من يشاء سرا ويطفئ من يشاء.

الشمس والماء والطين يسيرون في رأسه .. يسوقون قوته ويرتوي من براءتهم . يجلس على العشب ويمسك بعصا يخرج منها الضوء مصطدما بموجات متكسرة تحرك الزورق وتجرف جذوع الأشجار الى المصبات البعيدة.

الجميع يرعبهم جسد عويد ويترددون قبالة وجهه المفرط بالحمرة وشعره الاشقر المظفور على شكل جدائل تصل حتى ركبتيه ويديه اللتين تشبهان عمودين واليوم أي الخنازير وحشية سيجلس في الهور ويأكل الجواميس ليرمي لحملها للاسماك ؟ تحلق طيور الغاق ويمر الهواء ببطء على شفتيه ... يحمل رائحة تبخر الماء فيخرج ضوءاً ضئيلاً تمتلئ السماء بالدموع وتسقط زرقتها على وجه النهر، تخرج رائحة الاسماك السابحة باتجاه القرى البعيدة، تأخذ معها الماء أشبه بجروح

- ٣ -

في الصباح ألقى (خليّل) نظرة على تعرجات الطريـــق الذي اعتاد المجيء منه مرتديا دشداشـــته القصـــيرة وحـــزام البردي الملفوف على خصره، واضعا ما بين جسده والحـــزام خنجرة الشهير (عزرائيل) الذي تحتفظ قرية الكفاخ باحـــاديث عديدة عنه . هذه القرية التي أخذت اسمها من النهر المتعــرج الذي تجثم بجواره . كان عويد يسكن بمفرده أعلى القرية قبـل أن يتزوج من (جماره) بسنوات، تعرف القرية عنه أنـــه مـــن يحمي السد مـــن أيـــدي رجـــال وقحيـــن يحـــاولون تهديمـــه والاستحواذ على الماء ليروي حقولهم في القرى البعيدة.

ذات ليلة جلس عويد على أصوات أقدام تأخذ طريقـــها بعنف في اعماق الهور، إنه يعرف أشياء دقيقة عن هذا الهور، حتى السمكة الغريبة التي تدخل، كان بعد مرور يوم أو يوميـــن يعرف من أين اتت، يعرف جميع الممرات الضيقـــة ويحســـب القصب المحروق أو الميت، لا تاخذ عينيه نوما إن شعر بـــأن أحدهم قد تسلل الى الهور ليعبث به، في تلك الليلة اندفع عويد

بزورقه، سالكا أقرب الممرات وقبل أن يصل إلى مصدر الصوت، هرب الرجل الذي كان على ما يبدو يحاول سرقة الجاموس، حاول عويد اللحاق به فهو سريع في الركض داخل الماء وجسده الضخم إذا نزل في الهور لا يصل الماء الى سرته.

بعد محاولات عديدة ومطاردات سقط الرجل متهاويا من الاعياء، حينذاك امسكه عويد ودون أن يترك له فرصة التوسل وطلب المغفرة، نبحه من فمه حتى اسفل بطنه ثم وضعه على مقدمة الزورق وعاد إلى كوخه ليضعه في الصباح التالي بجوار السد.

منذ ذلك اليوم البعيد شاع أمر خنجر عويد (عزرائيل) وبدأ الريفيون يحسبون حسابات كبيرة للمرور قبالة أكواخ عويد، يهابه الرجال ويجلسون خلف جسده الذي هو بحجم شجرة . كثيرا ما أرعب الذئاب وتخافه الخنازير والكلاب المسعورة، بعد أن عرف الناس بما جرى للغريب الذي دخل الهور تمسكوا به أكثر في حماية السد . فهو لا يجلس دائما مع الرجال الريفيين ولا يتحدث كثيرا . كل ما يشغله الهور والسد والجاموس .. ينظر اليهم ويضمهم في احشائه .

في جسد ـ كلما تكبر الجروح تضمر عيونها المتورمة، كلتـــها بركان في طريقه إلى الانفجار، يكبر الصراخ وتكبر دوائـــره، تجتمع الأحلام أسفل الدوائر ويوزع الصـــراخ أســـراره في الجسد، يشاهد صورة أبيه تخرج من الزوارق ومـــن النخيـل المقابل للسد، يخرج بعنفوانه وغضبه ممسكا عصـــا غليظـة مرددا:

الحاد ... حاد ... حاد ... حو

الحاد ... حاد ... حاد ... حو

قطيع الجواميس ينبطح على الأرض ويتطلع إلى جميع الجهات يترقب القادم ويرفع نظراته باتجاه السماء.

## ـ ٤ ـ

الجواميس لم تكن ذليلة .. السنوات بَنتِ الجراح علـــى أجسادها وزرعت الصبر والقوة مثل ظلال باتجاه ضوء يرشدها إلى الصوت، يختنق صراخها بدموع غزيرة، لها صفات أطفال، كلها أخذت ضخامتها من جسد عويـــد، تـــأكل معـــه وتضـــع خطواتها بهدوء على ذات الأماكن التي يمضي إليـــها . هنـــاك حكايات تؤكد أنه الوحيد الذي جلب لجواميسه العشــــبة التـــي تنمو في الماء، لتنتفخ بعد ذلك بجسد غيمة لها أقدام، لا يمكـــن أن يمتطيها إلاّ رجل مثل عويد ومن ضمن أشياء كثيرة تـــتردد في القرية قيل ان عويد نهض من نومه مذعورا عندما شـــاهد امرأة لها شارب كث كلتها شبح إنسان تســـحبه مـــن فراشـــه وتمضي به الى أعماق الهور وهناك إذ لا أجساد ولا أصوات، دفعت رأسها في الماء، لم يلاحظ باي شيء اصطدم رأســــه . الصراخ يلقي بصخبه على حافة السمع، يزرع أشواكاً من نـــار تخطو بهدوء إلى الأحشاء، ليس من السهل أن يمسكها . داخل الماء شاهد المرأة، تشبه كلبا لها ذنب ملتو على عنقها، تخرج

منه أصابع بلا أظفار أصابع تشبه السكاكين رمتها بعنف الـــى جرف النهر، أخرجت عشبا يشبه شعر إنسان، وضعته في يــده وتركت جسده يندفع إلى سطح الماء، بينما كلماتـــها تلاحقـــه: هذه العشبة هي عشـــبة الجواميـــس . بعــد أن اكلــت منـــها الجواميس تركها عويد على حافة النهر.

## ـ ٥ ـ

مع قدوم الليل غزت افكاره الأسئلة التي تشبه جسدا آخر يستقر في جسده كلمه بهدوء: من أنت ؟ أرم بظلال وجهك إلى عيني وارحم جسدي مما يحيطه .. الوحشة تتسلل إلي وترمي برصاصاتها سعادتي، لم أكن أتوقع أن تحدث هذه الأشياء بجسدي . ماذا سأقول لاخوتي الصغار ؟ ماذا سأقول للقرويين ؟ .. إنهم لا يقتنعون بالأعذار، ويسخرون من أشياء لا يمكن السخرية منها . قبل ليلة واحدة كنت هادئا، لم تمر بي عواصف ولم أشاهد خرائب ونباتات ميتة . استمتع مع الدجاج، ألهو مع الكلاب، أنام أسفل جاموسة، أضع فمي على فهما ثم أرضع مع الجواميس الصغار، أمسد جسدي بالعشب، اتسلق جاموسة وأضربها مثل حمار وبحركة منها قلقة ترمي بي أسفل أفخاذها الخلفية وفي الأغلب كانت تبول على رأسي، أضربها، تنهزم إلى الهور . مرات عديدة كنت أسأل نفسي أسئلة لم أتمكن من الوصول إلى إجابة عليها، الأن أتذكر بعضها.

ـ متى يكبر الدجاج ليصبح جواميس ؟
ـ لم ينام الكلب معنا في داخل الكوخ ؟
ـ لماذا لا تلد ذكور الجواميس ؟

كنت سعيدا قبل موت عويد . الصور تتجمع وتتفجر مثل قنيفة تخلف دخانا كأنه احتراق عظام سمكة . لا أعرف ماذا يجري للماضي، إنه يحترق في رأسي، تتلاشى القرى، والممرات البعيدة تغلق لحظة تأملي لها، انا لست وحيدا الآن، أعلم أنك معي . لا أعلم من أتى لتخرج كلماتك من لساني وتتفجر على أجزاء جسدي، إنك معي . إنك لست بميت ولكن قلبك لا ينبض في قلبي، الدم فقط هو الذي يحترق وتخرج رائحته كدخان أعشاب ميتة . كلما أتأملك أجدك نائما، أحرك قدمي فينهض جسدك في أحشائي . قبل هذه الليلة كنت أغني كثيرا وابتسم، أرقص وسط الحقول وأشارك الصبية يومهم، نجلس بجوار نهر الكفاخ ونرمي أحجارنا . كنت دائما أرمي لمسافة أبعد وتعبر حجارتي النهر، في أحيان كثيرة نخلع دشاديشنا ونعلقها على أجساد من طين، نصنعها بايدينا لنوهم المارة ثم نمتطي القصب ونتصايح مزهوين:

ديخ ... ديخ

أخ ... أخ

ـ انطلق أيها الحمار، ونضرب مؤخرته . الجميع يهابوني ويأخذون بكلمتي وذلك لأنني كنت الوحيد الذي يقوم بصنع الطائرات من البردي وكلما أفلتناها محلقة في الهواء باتجاه القرى البعيدة ترجع الينا . ليست هناك أيلم للسعادة، إنها بجوارنا دائما . من أخذها منا الآن ؟ ثمة روائح غريبة لا نعرف من رماها على أفواهنا .. كنا صبية كثيرين، والآن وحدي، مع الأصابع التي تحاول ان تبعد الظلال، لا أعلم من أين أتت ولكنني بدأت أشاهد وجهك جيدا أيها الأب، أتلمسه فألمسك جسدي . أنت معي، لا ترمني بنار لا أريد أن أشعلها .. انقذني من الأسئلة التي لها قوة المجارف .. ربما سيعرفون أنك معي، سأتركهم لحماقاتهم وأمضي بعربة خوفي لأرسم أحلامي على الطين، لعلي أمسك ربيع قوتي وهو يسبح في الأنهار، يستيقظ مثل شبح على امتداد سنواتي.

إني أشاهدك جيدا في هذه اللحظة ايها الأب، من الذي أبعد الظلال .. ؟ من هذه الليلة وأنت معي، كلمني عن كل

الأشياء الخفية وافضح لي الحقائق النائمة خلفي . إنك الوحيد الذي أبحث عنه، كل شيء ممكن لن ابحث عنه، ربما انت الماء الذي منذ الطفولة اغني له، اسمعني جيدا أيها الأب ونم على فراشي القصير.

## ـ ٦ ـ

في مؤخرة الكوخ تجلس بناته يندبن حظهن لرحيله، كان عويد يجلس يوميا مع طلوع الشمس، يحلب الجواميس ويدفئ الحليب ويحضر الأرغفة بينما كن ينظرن إلى كفيه الكبيرين وهما يفرشان العجين ليصنع منه الخبز . أما بعد أن كبرت بناته فهن اللواتي استلمن زمام الأمور وبدأن بتنظيم حياة العائلة وبعث الروح في الأشياء الميتة، صنعن بيتا كبيرا لايواء قطيع الجواميس وجلبن الطين من حافة الهور ومزجنه مع التبن ثم أقمن سياجا حول الأكواخ الثلاثة لا يمكن للذي في داخله أن يرى من في الخارج . قمن بصنع قن للدجاج وفوش البردي الجاف أسفل الجواميس . كل واحدة منهن يشبه قوامها قوم عويد، دائما يقلدن حركاته وشراسته، آخر ما قمن به بناء

مراحيض جديدة . عويد يلاحظ هذه الأعمال ويوجههن في اللحظات التي تستحق ذلك.

في تلك الأيام كان عويد كثير الذهاب إلى الهور، يصطحب معه خليل بسنواته الخمس عشرة، يضعه على مقدمة الزورق . في أحد المرات تحدث إليه:

الهور يحب الرجال الأشداء لا تخفه وانت تواجه البردي ولكن احذر أن تعبث به فتغلق الممرات وتكسر القصب .. ربما هو يشبه جسد الأنسان .. أحد تجار الجاموس سخر من الهور وهو يردد: سأقتل كل ما بك .. سوف أجعلك يتيما بلا قصب، بعد أيام قليلة دخل إلى الهور جالسا في منتصف زورق على جانبيه اثنتان من الوسائد الغليظة .. في المقدمة يجلس أحد الفلاحين وفي المؤخرة فلاح آخر يدفعان بشدة لينطلق الزورق مثل رصاصة، هو الوحيد الذي يضحك بصوت مرتفع في مواجهة السماء حتى سقطت عليه قصبة فدخلت في قلبه . بعد ذلك هرب الفلاحون إلى المدن خوفاً من تأنيبهم بينما بقي تاجر الجواميس على حاله أكثر من يومين، أخذت الغربان والطيور الاخرى ما يسد حاجتها من جثته.

منذ أن سمع هذه الفاجعة وهو دائم التأمل في الـــهور، أحاديث وتوصيات عويد هي كل ما يشغل هذه العائلة.

خليل بن عويد جلس بين شـــقيقاته وقـــال: لابـــد أن نعيش، شرب الشاي ونظر إلى الوجوه الذابلة، الكلمات تـــأخذ طريقها من فم اضوية الأخت الكبرى: ما زالت وصية أبي ترن في رأسي لا تنسوا الماء والشمس والطين لقـــد أوصـــاني أن اكلمهم وأرمي لهم جزءاً كبيراً من الأحلام والكلمات . أوصاني بالأطفال وحذرني من قدوم الشتاء وضـــرورة تدعيـــم الســـد بالطين شرط أن يكون من ذلك الموجود في أعمـــاق الـــهور، ليزداد صلابة وعمرا . اسمية سقطت دموعها وهـــي تتذكـــر توصيات عويد بخصوص البط والدجاج وبناء كوخ آخـــر لـــه نافذة صغيرة تطل على السد وأكد أن قطيع الجاموس لا يطمئن ما لم يسمع الصوت الذي يردده له دائماً:

الحاد ... حاد ... حاد ... حو

الحاد ... حاد ... حاد ... حو

كل هذا من أجل أن يـــأكل بـــهدوء وكذلــك أوصـــاني بضرورة وضع باب خارجي وتفريغ الكوخ القريب من البـــاب ليكون خاصا باستقبال الضيوف ... أما الصغيرة هوية فقد رمت إحدى قدميها على الأخرى وهي تتكلم بأنكسار: لم يقل لـــي أي شيء ولكنه ضمني إليه وهو يردد: أتسمعين ؟ هززت رأســـي بالإيجاب . هذه أنت تهرولين في داخلي . ثم أنزلني وهو يتكلم بهدوء (لا يمكن أن آخذ معي كل هذا الحب) الفتيـــات يتكلمـــن بينما يجلس هليل وخشان على سيقانهن ينظران إلـــى ألســـنة النار المتراقصة في الموقد وهي تشكل هيئات غريبة.

نـهض خليل بن عويد، انبهرت العائلـــة مـــن أقدامـــه، تساقطت على خده سكاكين من دموع وبهدوء لملم جسده الذي نظرت اليه العائلة بتعجب وبدأ يخطو باقدام متعبة باتجاه السد.

## - ٧ -

من الشمال تأتي الأمواج محملة بغليان مخيف يرسم ذعره على جدران النهر كلما اصطدم الماء بحوافه . تتساقط فيقترب النهر يوما بعد آخر من الأكواخ مثل دبيب نملة، وهذا بالذات هو الذي أجبر الفلاحين بين كل عامين أو ثلاثة على ترك أكواخهم وبناء أكواخ أخرى خلفها بأمتار قليلة.

... تمتد قرية الكفاخ من تل أم الذبان إلى نهاية السد، تتوزع أكواخها على جانبي النهر الملتوي كذنب كلب باتجاه الغرب .. دائما تحدث أشياء مؤلمة في هذا المكان . إحدى النساء كانت عائدة من المطحنة وضعت رضيعها وأكياساً صغيرة من الطحين داخل زورق وأثناء مرورها بالتواء النهر والذي أطلق عليه بعض القرويين (الموات) انقلب الزورق على رؤوسهم . بحثت الأم عن ابنها في الماء .. نزلت حتى اعماق الطين . لم تمسك بشيء، خرجت تكتم صرخة في احشائها . الصيادون بعد ليلة واحدة وجدوا الطفل طافيا في بقعة بعيدا من

الهور . منذ ذلك اليوم والمـــرأة تـــهرول مـــا بيـــن الأكـــواخ والصراخ يهرول خلفها (أريد ولدي الرضيع، انه بفم الموات).

على الضفة اليسرى يجتمع نخيل كثيف وأشجار أخـرى تمنع من يقف على السد من مشاهدة الحقول المنتشرة خلفها . ما بين النخيل توجد مبازل صغيرة، تمضي بالماء الـــى آخـــر الأكواخ، ولهذا فكل واحد من الفلاحين أخذ الأرض التي خلـــف أكواخه، عويد هو الوحيد الذي لـــم يعمـــل بالزراعـــة، يحـــب الجواميس ورغم ذلك كان الفلاحون، بعد انتهاء كـــل موســـم، يجمع كل واحد منهم كيسا أو كيسين من الحبوب ليبعثها إلـــى عويد لما يقوم به من جهود في تنظيم الماء وحماية الهور.

على جهة السد تنتشر أكواخ قليلة ولهذا قبـــل موســـم الزراعة يضع الفلاحون أكياسا من البذور في الماء، يربطونـــها بحبال قوية إلى خشبة ثبتت جيدا في الأرض، يمـــر بجوارهـــا الأولاد والرجال ولا أحد يعبث بها، خلف الأكواخ يمتد طريـــق ترابي يصل السائر بقرى من خلالها يمكن العثور على الطريق المؤدي إلى مدينة الطوّيل . لم يعرف أبناء قرية الكفاخ أغلـــب ما يجري حولهم . منذ سنوات طويلة لم يخرج من هذه القريـــة أحد . فالذي يصل المدينة يقتله الفلاحون لو عـــاد لـــها مـــرة

## ـ ٧ ـ

من الشمال تأتي الأمواج محملة بغليان مخيف يرسم ذعره على جدران النهر كلما اصطدم الماء بحوافه . تتساقط فيقترب النهر يوما بعد آخر من الأكواخ مثل دبيب نملة، وهذا بالذات هو الذي أجبر الفلاحين بين كل عامين أو ثلاثة على ترك أكواخهم وبناء أكواخ أخرى خلفها بأمتار قليلة.

... تمتد قرية الكفاخ من تل أم الذبان إلى نهاية السد، تتوزع أكواخها على جانبي النهر الملتوي كذنب كلب باتجاه الغرب .. دائما تحدث أشياء مؤلمة في هذا المكان . إحدى النساء كانت عائدة من المطحنة وضعت رضيعها وأكياساً صغيرة من الطحين داخل زورق وأثناء مرورها بالتواء النهر والذي أطلق عليه بعض القرويين (الموات) انقلب الزورق على رؤوسهم . بحثت الأم عن ابنها في الماء .. نزلت حتى اعماق الطين . لم تمسك بشيء، خرجت تكتم صرخة في احشائها . الصيادون بعد ليلة واحدة وجدوا الطفل طافيا في بقعة بعيدا من

الهور . منذ ذلك اليوم والمرأة تهرول ما بين الأكواخ والصراخ يهرول خلفها (أريد ولدي الرضيع، انه بفم الموات).

على الضفة اليسرى يجتمع نخيل كثيف وأشجار أخرى تمنع من يقف على السد من مشاهدة الحقول المنتشرة خلفها . ما بين النخيل توجد مبازل صغيرة، تمضي بالماء الى آخر الأكواخ، ولهذا فكل واحد من الفلاحين أخذ الأرض التي خلف أكواخه، عويد هو الوحيد الذي لم يعمل بالزراعة، يحب الجواميس ورغم ذلك كان الفلاحون، بعد انتهاء كل موسم، يجمع كل واحد منهم كيسا أو كيسين من الحبوب ليبعثها إلى عويد لما يقوم به من جهود في تنظيم الماء وحماية الهور.

على جهة السد تنتشر أكواخ قليلة ولهذا قبل موسم الزراعة يضع الفلاحون أكياسا من البذور في الماء، يربطونها بحبال قوية إلى خشبة ثبتت جيدا في الأرض، يمر بجوارها الأولاد والرجال ولا أحد يعبث بها، خلف الأكواخ يمتد طريق ترابي يصل السائر بقرى من خلالها يمكن العثور على الطريق المؤدي إلى مدينة الطويل . لم يعرف أبناء قرية الكفاخ أغلب ما يجري حولهم . منذ سنوات طويلة لم يخرج من هذه القرية أحد . فالذي يصل المدينة يقتله الفلاحون لو عاد لها مرة

اخرى . لا يعلمون بالحروب، أقدامهم تمضي ببطء إلى الحقول ولم تتردد أخبار وجود سراق من أبناء القرية . تتزوج العوائل فيما بينها، يكبر الأبناء، لا يتكلمون مع نسائهم كثيرا وغالبا ما يخفين وجوههن خلف قماش غليظ . في الليل يجتمع الرجال في أحد الأكواخ الكبيرة ويطلق أحدهم غناء يشبه البكاء، النسوة خلف جدار من قصب، يتهامسن ببطء ويتكلمن عن دموع الرجال وانفجارها . عندما يتعب المغني تتفرق الخطى ويرسم الحزن أشجاره على القلوب.

قبل أن يموت أحد الرجال من كبار السن، اجتمع أغلب ابناء القرية حوله قال لهم:

ارموا بثيابكم في أكواخ عويد، ارموا بذهبكم وحبوبكم، إنه الوحيد الذي ينقذ أولادنا من الموت ؟!

ذبل فمه وسقط أسفل صدره . ذهب الرجال والنساء باتجاه الطين ليغطوا وجوههم به . كان عويد في تلك اللحظة على مقربة من كوخ ذلك الرجل، ارتجف جسده عندما شاهده الجميع يتلوى في الطين كسمكة تصارع الوحل، يرمي شعره إلى الخلف وتظهر صلعته بوضوح أكثر . أخرج خنجره (عزرائيل) وحركه بعدة اتجاهات، ربما خُيِّلَ إليه أنه يحارب

شخصا ما قبالته، أطلق صرخة كبيرة انتشر صداها في الهور، هربت الطيور والأسماك وانحنى القصب والبردي قليلا، الذئاب غطت رؤوسها وكلاب الماء لم تخرج . أخبار كثيرة مثل هذه يعرفها أبناء قرية الكفاخ.

ـ ٨ ـ

وقف دمغي على صخرة مرتفعة يروي ما شاهده للقرويين، صمت الجميع فجأة وبقي هو الوحيد الذي يتكلم بصوت مرتفع: نعم رأيته خلف الحقول مباشرة حينما نزلت الشمس وسارت خيوط الظلام مسرعة لتغطي كل شيء، شاهدت شيئا ما يركض باتجاهي حاولت أن أهرب، صاح بصوت رخيم: توقف أيها الرجل وانتظرني . كلما يتقدم تزداد ضربات قلبي وينهض خوفي كحشرة عملاقة ما بين الاضلاع.

ـ من أنت ؟

ـ أنا الذي خسرت كل شيء.

ـ اقترب اكثر إنه الغروب وليس بامكاني أن أشاهدك جيدا

اقترب بحذر، ضوء القمر يتسلل ببــطء مــن أحشــاء الظلام بدأ يغزو المكان، ارتعب جسدي، من النظـــرة الاولـــى، رأسي اراد ان ينفجر . إنه لا يشبه البشر ولكن ليس هناك مــا يقربه من الحيوانات أيضا . شعره الطويل يهبط على كتفه مثل شعر حصان وجسده جسد كلب رأسه رأس رجـــل بمنتصــف العمر، له شاربان طويلان وعينان واسعتان . كلمني:

ـ لا تخف مما ترى

ـ أخ ... أف ... أن

ـ دائما التقي مع الناس وأروي حكايتي واليوم فقط وصلـــــت إلى هذه القرية، لم أكن حيوانا ولا علاقة لي بهذا الجسد الــذي أحمله.

ـ من فعل بك هكذا ؟.

ـ ربما أعمالي القذرة

ـ هل أنت خارج من القذارة ؟.

ـ أنا روحها !

غارت خدود القرويين إلى الداخل وخرجت عيونهم بيوضا مسلوقة باتجاه فم دمغي، الصمت يبني أعشاشه على الأفواه ودمغي بهدوء يتكلم عما شاهده في تلك الليلة . أحد الجالسين لم يتمالك نفسه قال: (شيريد هذا القذر) وآخر قال: (ياجماعة مبين نذل) . رجل عجوز كان جالسا أشار إلى الرجال بالسكوت وقال (خل نعرف شيريد) . رد عليه دمغي، إنه يردد: اقتلوني .. إنني أبحث عمن ينصر الله وينتصر للسماء إلى أي يوم سابقى مثل الوحوش هائما في البراري .. يهرب مني الأطفال ولا تريدني النساء، أهلي يبصقون على وجهي وأصدقائي بلا شفقة يتركونني في العراء.
اقتلني أيها الرجل إذا كانت لله منزلة في قلبك.

ـ قل لي من أنت ؟.
ـ أنا مرتكب الآثام والساتر خلف الملذات.
ـ هل أنت مخبل ؟.
ـ أنا من سرق عقله ووضع مكانه مرحاضا.
ـ ماذا فعلت ؟.

ـ هناك في المدن الكبيرة، تعيش النساء شبه عاريات والرجال غارقون في الخمر والمحارم وكنت أمضي أيامي سابحا في بحر من الخمر، أجالس النساء حتى الصباح، ارتكب اشياء كثيرة، أسرق اصدقائي وأسلب كل من في الطريق . في احد الليالي لا اعلم كم احتسيت من العرق، دخلت منزلنا، لا اعلم انها أمي مزقت ثيابها، ضربتها بشدة حتى سال دمها عندما استيقظ ابي، اخرج مسدسه وسدد الى رأسي ثلاث رصاصات . بكت أمي بشدة بجوار جسدي وبعد سبعة ايام من دفني، شعرت بحرارة تسري فيّ .. تريد ان تفجر الاوردة، تريد ان تفجر المخ وتسير الى الاقدام، انني مازالت حيا، هذا ما اكتشفته، نفضت التراب عن جسدي وخرجت بهذا الشكل، أمي الان مجنونة تتسكع في الطرقات وانا ابحث عن الذي له رغبة بقتلي . لقد سئمت العيش هكذا.

أعطيته ما بحوزتي من طعام، أكل بعضه ورمى ما تبقى وتركني وأخذ يركض بقوة باتجاه القرى البعيدة مرددا: اقتلوني قبل أن ألوث اصابع نسائكم، اقتلوني قبل أن تخرج رائحتي وتذبل الحقول.

القرويون جفت شفاههم وأصبحوا كالأصنام، عيونـــهم مضطربة، أحدهم صرخ بوجه دمغي: (لو كاتلة هالنذل هذا ؟)، ترك حديث دمغي وقعا مؤثرا عليهم، فـــهم لا يعرفـون مـــاذا يجري خارج القرية في هذه الأثناء اصفرت وجوههم مندهشـة وتوجهت النظرات من شمخي الى خليّل بن عويد الـــذي كـــان يسير بعنف على الطريق المقـــابل للصخـرة . لـم يصدقّـوا عيونهم. الأصوات خرجت كلماتها: انه جسد غريـــب وصـوت آخر ردد: عويد ما زال حيا . لم يعر أحد المكان الـــذي يقـف عليه دمغي أي اهتمام ... أحد الرجال لم يتمالك نفســـه وقـف على الصخرة وقال بصوت مرتفع: (هذا عويد لو ابنه) ؟.

## ـ ٩ ـ

السماء تتحرك ببطء .. تسحب غيومها عباءة فوق الوجوه وتلغي أي فكرة تحاول أن تتشكل، غيوم بهيئة غريبة، تحاول أن تمنع القمر الذي رمى خيوط سعادته على الحقول وكذلك النجوم أخفت ضوءها خلف غبار مجنون، وحدها الشمس، ومع قدوم كل صباح، تحاول أن تقطع حشود الغيوم، ولكن تبقى ظلالها ترسم القلق على القلوب.

اجتمع أغلب رجال قرية الكفاخ وطلبوا من خليّل بن عويد أن يفسر لهم ما يجري . منذ سنوات والفلاحون ينظرون له باعتباره الابن الأرعن لعويد، واليوم سيقف بين حشود الفلاحين ويقول لهم ما لم يقله عويد للجميع، سيتكلم بصراحة عن جميع المشاكل التي ستواجههم .. خرج من كوخه واصطدم بحشد القرويين، يحاصرونه بأسئلة تحتشد مع بعضها، كأنها صوت واحد:

ـ ماذا قال لك عويد قبل أن يموت ؟.

ـ هل سنموت جميعا ؟.

ـ هل ستمطر السماء ترابا على أجسادنا ؟.

ـ كيف لنا أن نزيح الغيوم ؟.

ـ هل هي غيوم حقيقية ؟.

ـ من أين تأتي هذه الرائحة ؟.

مطرقة الاسئلة تحاول أن تخترق اذني خليّل بن عويد حتى وقف في منتصف الجموع ووضع حدا للفوضى التي تحيطه، وتكلم: لم يكن عويد وحشا، ولكنه جاء إلى الدنيا بعد أن سقطت أطنان من التراب على القرية، فتلت المواشي، وأغلقت الأنهار وظهرت تلال قليلة تلوح عليها بعض الأواني المفخورة وأسنان من ذهب وعظام حيوانات ليس من السهل معرفتها وكتابة بلغة لا يمكن فهمها الآن وجدوها على جدران أحد المعابد يقول مضمونها:

عندما يُولد عويد ستموت القرى ..

وتقتل الحيوانات وترتفع

التلال

كوارث كثيرة ستتدفق

هو الذي تحبه الأرض

ويخافه الماء.

عندما يموت

ستموت قرى وتحرق الأحلام

الوحوش لا يمكنها أن تقرب منه

من الماء نهض

والشمس والطين وحدهما

يعرفانه.

هذا ما قاله لي عويد، ليس قبل أن يموت ولكن في اللحظة التي أدرك فيها أنني أصبحت رجلا .. تحدث لي كثيرا عن حكايات تلك القرى . عندما نزلت أطنان من التراب خرجت النساء بلا ثياب حالما شاهدن الجمر يتساقط من السماء، ننتفن شعورهن وعانقن الطين . تحدث لي ايضا عن امه وهي تقول له (امضيت عشرين شهرا احملك في احشائي في كل شهر التهم ما يشبعني من الطين وأقف لساعات طويلة في الشمس بينما قدماي سمكة تشاكس الماء).

ــ : لخوتي ابناء قرية الكفاخ . قد أكون أصغرهم سنا غير أن بي رغبة أن تنهضوا فالكوارث لا تحتاج إلى النوم الطويل . في تلك القرية القديمة والتي لا يمكن معرفة مكانها بالتحديد الآن وحال سقوط أطنان التراب، هربت الطيور وانحنت الأشجار القوية ولم يعد من السهل الوصول إلى الماء، أحد الرجال كان يصطاد قريبا من البحر، سمع أصواتا وصراخا وشاهد سماء سوداء سقطت على الأرض، دفع زورقه باتجاه بيته . عندما وصل لم يجد إلاّ رمادا يغطي الأكواخ، قرر في سره أن يأخذ ما بحوزة الملكة من ذهب وجواهر وأمضى ليلة تعيسة يحفر فيها حتى مطلع الفجر وحال وصوله إلى أبواب القصر .. لم يجد صعوبة في فتحها . دخل إلى احدى الغرف ووجد ابنة الملكة نائمة بملابس مغرية . نهضت عندما سمعت حركته، بصقت على وجهه وشتمته مرددة (من انت ايها الكلب ؟ وكيف دخلت الى هنا ؟) . قبل أن تنتهي من كلامها اكتشفت أن كل ما حولها لم يكن كما هو وثمة موت يبعث برائحته اليها. أخبرها الصياد بأنه الوحيد الذي بقي على قيد الحياة . بكت بشدة وهي تمد يدها اليه، مسح دموعها وهي تسير معه .

أخبار كثيرة تقول بانه تزوجها وسكنا في مكــان بعيــد علــى مشارف الصحراء.

أخوتي .. انه عويد ربما يريد أن يأخذنا جميعاً معه.

أدار القرويون ظهورهم له وساروا يسحلون أقدامــهم ببطء إلى الأكواخ، أحدهم صاح بصوت مرتفع: (عويد ترك واحد مخبل بمكانة) . وقال آخر: (يمكن مسودن هذا الولد)، خليّل بن عويد رفع رأسه باتجاه الهور كأنه يريد أن يكلمه عن كل مــا قاله.

## - ١٠ -

ذات يوم ودون سابق إنذار لم يشاهد غضب الماء، الأمواج ليس لها وجود والحواف التي كانت تتصارع معها تقف شامخة، تسخر من الماء وهو ينهزم إلى القعر لتختفي بعض ملامح النهر . هكذا وقف رجال كبار السن وتكلموا وهم يشاهدون نهر الكفاخ يذبل كغصن لم يمض زمن بعيد على اقتلاعه . أصبح الوقوف على السد ومراقبة النهر كمن ينظر بفم عميق ليس له حدود، تنتشر الأسرار في جوفه . بدأ الماء ينخفض أكثر فأكثر، فخرجت جذوع النخيل القديمة وصخور كبيرة وبعض الأواني التي سقطت منذ زمن . حتى أن أحد الرجال عثر على منجله مغمورا في الطين بعد أن اختفى قبل سنتين . شباك متهرئة متعلقة بقطعة حديدية كبيرة ورجل آخر عثر على مسحاته، رماها ابنه قبل أكثر من عام وسط النهر . الجميع مندهشون لما يجري . يقفون على حافة النهر ويشاهدون الأسماك تصطدم بالطين وتموت.

بعد أكثر من ليلة لم يبق في النهر قطرة ماء، الحافات تيبست والحقول وصل الموت إلى سنابلها، الأطفال ينزلون إلى عمق النهر يلعبون بالرمال ويرسمون على الطين صور حيوانات ورجال ويبنون بيوتا غالبا ما يحطمونها لحظة أن يقرروا العودة إلى الأكواخ، الرجال حفروا آباراً كثيرة، خرج منها ماء مالح، وصار بأمكان الجاموس أن يمضي طولا وعرضا من دون أن يعثر على قطرة ماء، ليعود بخطى بطيئة من الحقول الميتة . أكثر من شخص من أبناء قرية الكفاخ قاموا بارواء جواميسهم من الآبار، يخرجون الماء من البئر ويضعونه في حفرة أخرى أقل عمقا، تلتف حولها الجواميس . لم تعتد الجواميس على شرب ماء الآبار ولم يتذوقه الأطفال سابقا.

أحد الرجال كبار السن وفي صباح أحد الأيام طلب من الناس أن تصلي وترفع يديها إلى الله وتطلب منه أن يجلب الماء ويفجره مثل البراكين . اجتمع الرجال ووقفوا واحدا بجوار الآخر . الرجل كبير السن وقف في المقدمة رافعاً يديه الى السماء وردد كلمات حزينة، قبل نهاية الصلاة ردد

المصلون أدعية من ضمنها هذا الدعاء الذي بكى معه أغلب الرجال:

أنقذنا أيها المنقذ الكبير فلا منقذ غيرك
انظر لنا فلا عيون تحتضننا غير عيونك
أمسك أصابعنا فبعدك لا أصابع لنا
ارم الينا ما يجعلنا ننمو في لحظة الموت
إذا كانت هذه هي اللحظة فعجل بها
فلا قيمة لنا بلا نعمتك

بعد انتهائهم من الصلاة، اجتمع الرجال وتحدث كل واحد منهم عما يريده أو له رغبة في طرحه بعد المفاجآت غير المتوقعة لاختفاء الماء، تقدم دمغي قبالة الرجال، وفي نفس المكان الذي كان يصلي فيه الرجل الكبير، وروى مرة اخرى حكاية الرجل الذي أصبح كلبا، وقال في نهاية كلامه: إنهم لا غيرهم الرجال سكان المدن، إنهم ينامون مع أمهاتهم ويعيشون في بحور من خمر إنهم أولئك الذين (دينهم دنانيرهم وقبلتهم نساؤهم).

خليّل بن عويد تركهم وعاد إلى كوخه .. ينظر إلى الحافات المتهدمة في داخل النهر والذي لم تعد به قطرة ماء واحدة، يفكر في الجواميس ومصير القرية، جلس وحيدا على حافة النهر المحتضر يفكر:

ـ كيف لي ان أتنفس من دون الماء ؟

ـ ما الفائدة من وجود السد ؟

ـ كيف لي أن أموت من دون أن تصل جثتي إلى أبناء القرى البعيدة ؟

ـ ما الفائدة مني بعد اليوم ؟

النزيف من حولي ولكن هذه المرة لا أشاهد الدماء، الهور لم يعد يحمل رنة، الكلاب البرية تسكنه، الطيور هاجرت ولكن ثمة آثار لبعضها ميتا يلتصق بالطين، الأسماك لا أحد يعلم بمصيرها، الجواميس هزيلة، محنية الظهور، يصل رأسها قريبا من الأرض تبحث عن أي شيء حي . بعد ليلتين من صلاة الجماعة، دخل خليّل بن عويد الى أعماق الهور، رفع رأسه وصلى . وقفت خلفه الجواميس والأفاعي، وهياكل

الأسماك والنباتات الذابلة . جميعها كانت تردد خلفه كل ما قاله من أدعية وتردد بصوت مرتفع كلمة (آمين) ومن ضمن هـــذه الأدعية هذا الدعاء:

يا إلهي إلى أي يوم ستستمر الكارثة
وبأي يد سنعثر على الماء والطين
لم تعد تعنينا هذه الأجساد ..
إنها قذرة فحطمها بقدرتك
إن لم تكن راضيا عنها
إنه الطين الذي في قلوبنا
يتوسل اليك ويعترف بحقارته
التي لا تسعها السماء.

سحب أقدامه بصعوبة باتجاه السد، تركـــت خطواتــه نياشين في الأرض، حيوانات كثيرة تمضـــي خلفــه، تحــاول التشبث برائحة الطين.

ـ ١١ ـ

يتحركون ببطء ولهم أصوات خشنة، مسالمون ولكنهم يتقنون القتال، يذبحون ثيرانا كثيرة لضيوفهم ويبكون بكاء شديدا في أوان الكوارث، لم يستجدوا أحداً ولم ينكسوا رؤوسهم لغير الله . دائما يتكلمون لأطفالهم عن هذه الأرض التي كانت بحرا حتى اقتربت منها الشمس وغزا موجها الطين لتنتصب مثل ظهر بعير نافضة عنها تاريخ الملح وعظام كواسج وروبيان ورائحة جثث ممتزجة مع الماء . ظهر حطام السفن الخشبية الكبيرة، ليتجمع الماء بعد ذلك في برك كبيرة اطلق عليها فيما بعد ـ الأهوار ـ نمت فيها نباتات جديدة وعاشت فيها حيوانات بأسماء ولدت معها في الأغلب، كل ما تحلم به تجده في الهور هذا ما يتكلم به الكبار في السن دائما.

في قرية الكفاخ غالبا ما يتزوج الرجال من نساء لم يشاهدوهن سابقا لتكون الليلة الأولى لزواجهم هي ليلة الاكتشاف، وهذا ما يولد مواقف محرجة وطريفة فمنهم من يكتشف أن امرأته مجنونة ومنهم من يكون في العشرين من

العمر، مثلا، ليجد ان امرأته يقترب عمرها من الأربعين، فضلا عن الكثير من النساء اللواتي يصلن الى أعمار متقدمة من دون أن يتزوجن، وأخريات يقلدن الرجال في السلوك والثياب ويعملن بجهد يفوق قدرة النساء.

بعد اختفاء الماء لم يتزوج أحد ولم يرتدوا ثيابا جديدة، يجلسون يندبون حظوظهم ويتكلمون عن السنوات المائية بأصوات ذليلة.

ــ أين عويد لينقذنا من المحنة ؟.

ــ كان بأمكانه أن يخرج الماء من احشائه ؟.

ــ ربما يعرفه الماء.

خليّل بن عويد يتأمل السماء وهي تنزف غيوما على جسدها، يراقب هذه الأشياء بعجب ويقول: ربما لم تكن غيوما ... انها تشبه جلد الضفادع . يرفع جدائله الطوّيلة الممتدة إلى ركبتيه ويمسح بباطن يده وجهه شديد الحمرة يسمع صوتّا يناديه من بين الأضلاع:

ـ لا تبكِ في مواجهة الكوارث

ـ لماذا وانا الذي تعلم باكرا أن يكون مثل كل الرجال

ـ انك لا تشبههم.

ـ بماذا اختلف إذن ؟.

ـ أنت الوحيد الذي تخافه العواصف.

ـ أنا ؟.

ـ أنت الذي تمسح الدموع وتبني الديار الآمنة.

ـ كيف لي أن أصل إلى هذا الحد ؟.

ـ إنها قوة الشمس والماء والطين

ـ قوة ... من ؟

ـ قوتي ...

ـ هل ... ؟.

ـ أمض ياخليل .. حيث لا يوجد الانسان، أنت الذي تملك جسدي وجسد أجدادي وعطري وعطر القرى الآمنة . صرختك تصل إلى أبواب السماء، تخترق أحشاء الموت وتنهض، اصغ دائما لكلماتي وأمض خلف أقدامي التي تسكن جسدك.

خليل بن عويد ... عرف أن هذا الذي تخرج كلماته من بين الأضلاع انما هو عويد وليس من أحد سواه.

— ١٢ —

انه لمخيف فعلا هذا المشهد الذي تلده السماء . خيوط ضوء تتسلل ببطء الى الارض من بين فجوات الغيوم السود، حتى ان (هليل) صرخ: ما هذا الذي يجتمع فوق رؤوسنا ؟ .. ابتسمت له أضوية واخذته بين أحضانها، الريح تشتد في هذه الساعة المتأخرة من الليل .. خليل ينظر من فتحة في أحد الأكواخ إلى السماء المزدحمة بهذه الغيوم التي بدأت مع تقدم الليل وكأنها ضفادع . تشتد الريح، ليس من أحد خارج كوخه الآن، خليل من فتحة في كوخه بدأ يراقب بعض الأكواخ تأخذها الريح بعيدا، لم يسمع لحظتها أي صرخة أو أي أثر لحياة بشرية، ارتعد جسده وطلب من اخواته أن يمسك أحدهم بالآخر. بعد ذلك هطلت من السماء أمطار غزيرة، سوداء ترافقها رائحة تشبه عفونة الموت.

العواصف دمرت أغلب الأكواخ، إنها تتقدم مثل حشـرة عملاقة بفم كبير، تلتهم كل شيء، الخوف يتفجر فـي قلـوب الأولاد الصغار والأخوات يحطن بأجسـادهن رؤوس الأطفـال، كان خليل بن عويد هو الوحيد الذي يرقب ما يجـري بصمـت وبقلب يشبه صخرة . يتأمل المياه الهاطلة من الغيوم ويتذكـر الذين يبكون في مواجهة الكوارث، يتذكـر للـهور وادعيتـه فيوقظه صوت الجواميس:

الحاد ... حاد ... حاد ... حو

الحاد ... حاد ... حاد ... حو

ليس بامكانه أن يبكي ما دامت الأفكار تنهزم والمـوت يهجم على القرية دفعة واحدة .. إنه قبر كبير يلتهم الأجسـاد ويلفظ أرواحها بعيدا، يقترب النهار وتـزداد السـماء عتمـة ومطرا حتى أن خليل وعائلته يتحسسون المـاء يتسـلل الـى اقدامهم.

ارتفع صراخ من أماكن مختلفة في القرية . بعد ذلـك شاهدوا الأكواخ تقتلع وينتشر القصب والطيـن ومـا تخفيـه

الأكواخ، إلى أجزاء الهور التي امتلأت بمياه قذرة رمتها الغيوم التي تشبه جلود الضفادع، هربت العوائل تاركة الماء يحـــاول خنق الأرض حتى ان نهر الكفاح اختفى داخل طوفـــان الميـــاه الصاعدة.

حمل خليل بن عويد عائلته الى الزورق الكبير، وكـــانت تساعده إضوية، لا يوجد بردي يجلسون عليه، لا توجد أغطية، الخوف فقط يقف بجوارهم كشبح يحاول أن يثـــير جراحـــهم . دفع قطيع جواميسه إلى مكان قريب من الزورق، الجواميـــس تكير رؤوسها خائفة الـــى جميـــع الجـــهات وعنـــد ان بـــدأت العواصف وهي تردد:

الحاد ... حاد ... حاد ... حو

الحاد ... حاد ... حاد ... حو

إضوية هي التي ثبتت الحبل جيـــدا مـــا بيـــن خليّـــل والزورق الذي كان يسير ببطء . الحبل مثل أفعى يلتف حـــول جسده والجواميس تتقدمه بقليل، الأخوات في مؤخرة الـــزورق يجلسن فوق اخوتهن الصغار أشـــبه بجلـــوس دجاجـــة علـــى

صغارها، الجواميس مثل حشرات عملاقة تتجول في الماء أكثر من خمسٍ وعشرين جاموسةً تتقدم مسير خليّل بن عويد، لـــم تمض إلاَّ لحظات قليلة حتى توقف ونظر الى الخلـــف باتجـاه السد، شاهد رجالا كثيرين مثل أسماك صغـــيرة فـــوق ســـطح الماء، ربما لم يكونوا من أبناء قريتنا . صوت عنيف خرج من اضلاعه: (امض الى اليابسةَ) في هذه اللحظةَ لم يشاهد خليّـــل بن عويد أي أثر لقريـة الكفاخ وكأنـــها شـــجرة اقتلعـــت مـــن جذورها، الماء يرتفع ولكنه لم يصل الى مؤخرته، انه يتحـــرك بسهولة اطمأن على الحبل الممتد بين جسده وعنق الـــزورق، إنـه غليظ ولكن لا يؤلم خصره على الرغم من أنه بـــدأ يتقـــدم بعنف بمواجهة العواصف وهي تـــأخذ جدائلـــه إلـــى الجهـــة المعاكسة.

## - ١٣ -

إنه زورق كبير ولكن الجلوس فيه غير آمن، هذا ما أحس به خليل بن عويد وهو يحاول أن يمنح قوته للعائلة والجواميس، يمضي بعنف إذ تشير الأصابع التي يتحسسها في الاضلاع، إنها تشير باتجاه الغرب ولهذا يمضي مثل أعمى فتح عينيه بقوة ولكن بلا جدوى، لا يشاهد شيئا.

إنها غيوم تنزف ماء يخفي ضوء الشمس ليستمر الظلام على امتداد اليوم، حتى أن خليل بن عويد لم يعد يشاهد انفه، كان هذا بعد يوم واحد من مسيره، انفعل لسماعه أصواتا حزينة من أفواه الجواميس، دار حولها يتلمس قرونها وذيولها، اكتشفت أن ثلاثاً من جواميسه جلست في الماء، قال في سره: ربما جرحت أقدامها . سمع شخيرا يشبه صراخ أطفال يخرج من افواه الجواميس، التفت صوب قرية الكفاخ لعله يشاهد أي شيء، الريح فقط هي التي تسرق جدائله الطويلة، تأخذها باتجاه المياه الذاهبة إلى القرى البعيدة، أحس بأن ثلاثاً من الجواميس ليس بإمكانها المضي اكثر من ذلك،

رفع رأسه الى السماء، لم يعثر على الشمس ولم يشاهد القمـو . قطعت أضوية بخنجر عويد (عزرائيل) الأرغفة اليابسة التـي كانت بحوزتها، قبل أن ينتهي خليل من مضغ الكسر اليابسـة أخبره الصوت الخارج من الأضلاع بضرورة عدم التأخر داخـل هذه المياه القذرة.

## - ١٤ -

الربيع يمضي بعيدا، يقتل ذاكرة السنوات، ينـــام مثـــل أحدب في هذه الليل المخيف كذاكرة يحاول ان يلتهمها حيـــوان منقرض، ليست صرخة واحدة، إنه صراخ كثير يتجمـــع فـــي الأفق مثل جبل يريد أن ينحني، أو مثل غرقى بأفواه لا تحصى. تصرخ في لحظة واحدة ولا تمتلك رغيفـــا لتوقـــف الدمـــوع، انفاس مثل عربة تجر في الوحل، خائفة تنبـــض فـــي المـــاء تمتزج مع الأصوات الغريبة التي تخرج من الغيـــوم وترمـــي بأصدائها في أنحاء السماء، الظلام، شجرة محروقة جذورهـــا كأنها تحاول أن تلتف حول رقبة خليّل وترسم جنونها على كـــل ما يحيطه، كلما يرميها بعيدا يجدها تهرول في رأسه وتنبض . أحلاما كبيرة، تتفجر بمواجهة هذا الخراب، حتى أن الانســـان بدأ يجف في داخله . ليس هناك ما يثبت أنه ما زال ينبـــض، رماح كثيرة تصطدم بجسده وباجساد الجواميس، أقدام مخلوعة وأيدٍ مشوهة . كلما تقدم ثمة رائحة غريبة تحـــاصره كأنـــها تحاول أن تسكن المخ وترمي خوفها الى الأقدام.

إنه لا ينبض، هذا الذي يسمونه الأنسان، رؤوس أولاد صغار، رؤوس رجال بأجساد خشنة . ما زالت الشوارب يانعة على شفاههم . كيف له أن يعرف من الذي وراء هذه الغيوم الحقيرة ؟ أصوات تصادم واحتراق وأبخرة غريبة تخرج من السماء، تنزل بقوة المطر وتمسك الغيوم.

منذ أيام لم تمسك أصابع الربيع هذه الأرض أو تزرع نبته من دون أن تغرقها بالدموع . ربما هذا الصراخ الذي يحيطني يخرج من أحشاء الماء لا أعتقد بأنه بكاء الأرض ربما العواصف تتصارع مع نفسها، أو مع الغيوم . الحيرة ترسم جبينها حوله . ربما يفكر بالحصول على الأوراق التي ستخرج من هذا الماء.

## ـ ١٥ ـ

لقد فقد صوابه، ربما هو ذاهب بنـــا الآن الـــى عمـــق الكارثة .. هذا ما قاله أحد الأولاد الصغار، الأطفال يجلســـــون بين افخاذ اخواتهم ويضعون اصابعهم قبالة وجوهـــهم . كلمـــا يشتد المطر تغرق ثيابهم برائحة تشبه رائحة الارض . حينمـــا تهدأ الريح يخرجون رؤوسهم مثل حشرات تظهر أنصافها مـــن حفرة . بعد أكثر من ليلة في هذا الضياع لم يكتشف خطوة مـــا أمامه، خرائب تنمو على جحور الأفاعي وكذلك علـــى اجنحـــة الطيور وهي تحاول أن تجد لها نسمة هواء هادئة بعيدا عـــن المستنقعات.

الغيوم تقترب من الأرض، تنفخ بشدة لتجعـــل الأيـــام محملة برائحة ليس من السهل على الأنسان أن يتنفسها فـــي هذه الصحراء المائية.

## ـ ١٦ ـ

صرخ على من يسكن في احشائه:

كلمني ...

كلمني ـ

ياأبي ..

أنا الذي رميت التراب على جثتك في القبر وعدت حزينا لا جثتك تسكن أحشائي، أبي أخبرني إلى متى سنمضي وأنت تشير ؟ أخوتي وجوههم تشبه أرغفة لم تصافحها السعادة، سنواتنا سقطت بفم حوت وحبال كبيرة تشبه أذرع الخبوط تتسلل إلى أعناقنا تريد أن تخنق الكلمات.

كلمني ـ

كلمني ... أبي ـ لماذا كل هذا الظلام ؟

ـ أنها رائحة الجثث.

ـ كيف لي أن احطمها ؟

ـ إنها تحطم الجميع

ـ من هو عدوي ؟

ـ إنهم كثيرون.

ـ دلني عليهم.

ـ كيف أدلك وهم حولك ؟

ـ لا أرى شيئا .. إنها أمطار وغيوم.

ـ استمع الى الصوت.

ـ إنه صوت العواصف.

ـ إنه صوت الشيطان.

ـ إنني لا أشاهد منك غير الأصبع الذي يشير.

ـ لأنني أشاهد جميع الكوارث

لا يهزمها إلاّ جسدك.

ـ أنا أحبك ياأبي.

ـ أنا أحب الهور.

ـ هل هناك أحد غيري فيه.

ـ أنت واخوتك فقط.

ـ أريد أن أبصق.

ـ أبصق على الغيوم.

ــ لماذا ؟

ــ هي التي التهمت الجميع.

ــ أنا الذي طلبت من الله أن يجلب الغيوم.

ــ انها ليست من الله.

ــ من أين اذن ؟

ــ ربما من الشيطان.

- ١٧ -

هذا الحبل الذي يمتد خمسة أمتار من جسده ليس حبلا عاديا، بل هو أكثر من عشرة حبال مضفورة لم يكن أحد يعلم لماذا كان عويد يضفرها . منذ سنوات عديدة يدهنها بالزيت ويعرضها للشمس، يربطها على زورقه الكبير الذي صنعه منذ سنوات بعيدة لا أحد يعلمها . أكثر من خمس جواميس نزع جلودهن بعد موتهن بامراض غريبة، كان كلما تموت احداهن، ينفخ الهواء مثل دخان يكلم الشمس ويهمس بهدوء في فم الطين، لم يعتد اهالي قرية الكفاخ على أكل لحوم الجواميس، والتي تذبح لطارئ مثلاً كأن تسقط في حفرة او جدول اثناء سيرها فتنكسر اضلاعها او تختنق او في حال تعرضها للدغة افعى مائية . لم يعرف أهالي قرية الكفاخ . ماذا يفعل عويد بهذه الحبال المربوطة بين خشبتين كبيرتين بجوار أكواخه . واليوم في هذه الكارثة، الحبل هو الوحيد الذي يحتضن جسد خليّل بن عويد . حتى أن خليّل بن عويد كان يتحسس كأن جاموسة تحضنه وليس حبلا . أكثر من سبعة أيام وهو يمضي

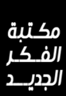
في هذه المياه المرعبة لا يعلم ماذا يجري لعائلته النائمة في الجهة الاخيرة من الزورق . تجلس مثل كومة لحم متهرئة، يزرع الخوف صوته في قلوبهم بينما يحتضن الحبل المقدمة المرتفعة من الزورق، كل خطوة للأمام تجعل العائلة قطعة سكر في حوض ماء، الوجوه تحمل رائحة الموت على تضاريسها، ثيابهم مزقتها العواصف وبنت الأمطار بها أخاديد . كل هذه الأيام وخليل بن عويد ليس بأمكانه أن يلتفت إلى عائلته . لا يعلم ماذا يجري لهم داخل الزورق . ليس بإمكانه أن يبعث لهم حتى الكلمات . ربما كانت الكلمات أقسى من الموت أو ربما يفكر ماذا تعني الكلمات عندما يقف الإنسان على مقربة من الموت ؟

حتى أنه في لحظات المطر الشديد كان يعتقد بأنهم ربما ماتوا من شدة المطر وصراخ العواصف.

# الفصل الثالث

# عـام العاصفة





## ـ ١ ـ

ليس هناك من قال إنني سأبقى وحيدا ولو حصل ذلك يكفيني أن احتضن الخنجر (عزرائيل) فهو من سيقف معي في المحنة، لا أعلم من صنعه ولكنه كان ينتقل بين رجال العائلة يقال إن أحدهم عثر عليه داخل صندوق صغير في أعماق الهور، تغطي الصندوق طبقة رقيقة من الطين . كان ذلك في يوم قرر فيه ذلك الرجل أن يسبح في أماكن قريبة من الطين، كان يعتقد بأنه ربما سيعثر على كنوز وصلت بفعل الماء والكوارث . يحلم بأشياء لا يعلم ما هي، يتصور أنها قد تأخذه إلى أعماق السعادة . احتضن الصندوق وهو يسبح بقوة .. يشاهد الأمواج ولا رغبة له في محادثة نفسه عن أخطارها، الأحلام تسبح معه، له رغبة في أن يدخل الماء إلى جوفه من أجل أن يصل الى اليابسة . كل ما كان يرغب فيه الوصول إلى تلك الأشياء التي ستنقذه من الجوع والهلاك اللذين رسما ظلالهما على حياته . عندما وصل إلى الأرض وقبل أن تنزل قطرات الماء من على جسده، فتح الصندوق، كأنه يحاول دفع

صخرة موضوعة على أبواب مغارة . كانت خيبته كبيرة عندما لم يعثر على ما كان يحلم به، ولكنه وجد خنجراً طليت قبضته بالرصاص وهناك حروف غريبة تشبه أجساد بشر أو حيوانات، له التواء وبريق هلال . شعر أن في داخله قوة غريبة، الذي يمسكه لا يخاف أي شيء ولهذا أصبح من الواجب على كل شخص من أبناء العائلة أن يحفظ هذه الحادثة ويرويها للآخر الذي سيرث الخنجر في لحظة تسليمه له ويملي عليه عدة توصيات . ليس بالإمكان التصريح بها الآن، ثمة اعتقادات بأن التوصيات هي التعاويذ التي تحمي الخنجر وصاحبه من الشرور، كان ابي كلما ما تشتد المعارك ما بين القرى، يخرج الخنجر من غمده ويضعه في مكان قريب من الفم، جميع افراد العائلة كانوا متيقنين بأنه يملي عليه بعض الشروط التي يتوجب عليه عدم مخالفتها.

## ـ ٢ ـ

وقف رجل أدعى بأن اسمه دمغي وهو الشقيق الأكبر (للحكواتي) الشهير شمخي . عندما سمع الناس المتعبون والضجرون هذا الخبر تركوا أعمالهم واقتربوا منه متلهفين . توسط الجمع وقال: (سوف تقولون من الذي أتى بك الى هذه المدينة ؟ .. وماذا تريد ؟ في الحقيقة أني أتيت إلى هنا لأن أبي زارني ليلة البارحة في المنام وطلب مني أن آتي إلى هذه المدينة وأروي لكم ما رواه لي) . أحد الخياطين كان يمسك بيده دشداشة لم تكتمل خياطتها بعد، قال: (هوه هذه شمخي آنه أعرفه كلش زين) . رجل آخر خرج من المقهى، صرخ وهو يشير إلى يد الخياط (ولله هذي دشداشتي) . صعد دمغي على صخرة كانت موجودة على رصيف شارع السوق وبدأ يتكلم (لا تتعجبوا ايها الاخوة . انا ايضاً كنت اعتقد بان شمخي هو أخي ولكان أبي جاءني في الحلم وأخبرني بأنه قتل شمخي، لأنه صنع مجموعة من الدمى وباعها في سوق الطوّيل، وقيل ان أحد الرجال شاهده يضع إحدى الدمى بجوار ذكره وكأنه

يحاول مجامعتها ولأن صناعة الدمى كانت ممنوعة مــن قبــل طويل الطولاني المدير الأول للمدينة وخوفا من انتشار المسألة والإشارة إلى بيتنا بالعار أخرج أبي مسدسا وأطلق عليه ثــلاث رصاصات بعدها تبرأ من أخي وأعلن أمام الناس أنه ليس مــن صلبه، وأنه التقطه صغيرا على الطريق أمام بيتـــه) . بعــض الرجال جلس مشدوها لهذه الحكاية الغريبة والبعض الآخر بــدأ يشير إلى آخرين لم يجتمعوا حول دمغي، وأستمر دمغي يشرح ويوضح . ومع بداية تفرق الجموع التي خامرها الملل شـــيئا فشيئا، دخل كلب ضخم مرر جسده ببطء وحذر من بين الرجال الذين لم ينتبهوا لدخوله وعندما اقترب من منتصف الجمع هب فجأة وغرز اسنانه في القدم اليسرى لدمغـــي، صـــرخ دمغـــي مستغيثا، وساد الهرج للحظات، اندفع بعض الرجال .. وحملوه على الأكتاف تساقطت بعض الأشياء والأوراق من جيبه وارتفع الصراخ، أحد (العربنجية) ركض وراء الكلب وقال في ما بعــد إنه شاهده يدخل إلى منزل المدير العام لمدينة الطويّل وآخرون أكدوا أنهم شاهدوا الكلب يمضي مسرعا ما بين الحقول كأنـــه ذاهب إلى أعماق الهور.

## - ٣ -

الطريق وعر ومتعرج، ومع ذلك كنت مصرا على الوصول إلى من يمتلك المقدرة على شفائي . النزول في الحفر والسير لساعات في الماء أهون من المرض الذي فتك بأغلب رجال القرية . لا أعرف بالتحديد من الذي كان معي ولا تعني لي هذه المسألة شيئا ولكنني كنت أتحسس بأن القرية بجميع أبنائها تحيط بي وتسحبني بعيدا عن الظلام الذي لم يترك لعيني غير بصيص ضوء تصارعه الاشباح . عندما اقتربنا من نهاية الطريق النيسمي المحاذي للشط، سمعت سعالا وكلمات زاعقة وشممت رائحة بخور حين ذاك أدركت أننا وصلنا إلى كوخ المرأة التي وصفها الرجل السمين . ذلك الرجل الذي يدور في أنهار القرى بزورقه الشبيه (بعطارية) متنقلة، إنه يعرف أسرارا كثيرة، كلما يدخل الى قرية يروي لأهلها أخبار القرى الأخرى، كانوا يقولون إن اسمه الحاج حسون ولم يعرف أحد ما هو اسمه الحقيقي . كان مستغربا وهو يدخل قريتنا ويشاهد الرجال الذين أصابهم العمى . اضوية دائما هي التي كانت

تشتري منه بعض احتياجات العائلة، قال لها بهدوء: (لا أحـــد بأمكانه أن يشفي هؤلاء الرجال إلاّ تلك العجوز التي تسكن فـــي كوخ منعزل نهاية شط الواوي)، وهذا الكلام هو الـــذي جعلنـــا نقطع كل هذه المسافة البعيدة ونتحمل المشاق التي صادفتنـــا . عندما اقتربنا من باب كوخ المرأة العجـــوز ســـمعتها تقـــول: ادخلوا .. تعالوا، إنها كلاب غير وحشية.

بعد هذا الكلام سمعت نباحا كثيرا كأنه يصدر من عشرة كلاب . انفتح باب الكوخ، جلسنا على مصاطب من طين تكلمت لها عما اصاب قريتنا، تحسست بانها أمسكت عصاها وهذا مـــا تأكدت منه عندما بدأت أسمع ضربات ممـــيزة علـــى الأرض . قالت:

ــ هناك طريقتان لمعالجة الرمد.

ــ حدثيني عنهما فعيناي

لم أعد أميز بهما الاشياء

ــ إنه طوفان الدمع الذي يحاول أن يخرج من عينيك

ــ لم أعد أشاهد غير اشباح.

ــ انك لست لا احد لأن عينيك ليست لك

ـ حدثيني عن الطريقتين اللتين يمكن
أن أشفى من خلالهما

ـ أحدهم يمسك لك غرابا أسود في ريشه نقاط بيض، تضع الغراب في الشمس لمدة يومين من دون أن ترمي له شيئا من الطعام وقبل أن يموت تأخذ ابرة غليظة ومع اقتراب الغروب تفقس عينيه بها، ثم تاخذ القليل من دم عينيه وتدعك به عينيك ثم ترمي الغراب مع أمواج النهر.

ـ أريدك أن تصفي لي دواء يشفي جميع الرجال

ـ الطريقة الثانية هي أن تأخذ بول صبي اسود وتضعه في قدر صغير ثم تعرضه بعد ذلك قبالة أشعة الشمس، وعندما ترى ان البول بدأ يتبخر ولم يبق منه إلاّ القليل . تضع قطرات في العينين . في اليوم التالي تغسلهما من ماء الهور وتفتح عينيك على اسم الله.

## ـ ٤ ـ

لم تكن أكواخ جدي حردان تبعد كثيرا عن القرية، ولكنها منعزلة، تقع في منتصف حقل كثيف الأشجار، وهذا ما جعل المارة يشاهدون من يجلس في ساحة البيت، ويلقون عليه السلام . كان أبي شابا في تلك الايام، طويلا ويحمل دائما عصا غليظة، أصابعه نحيفة وبيضاء، وحين ينزل إلى الهور يأكل (الشرع) جلده فتظهر انتفاخات حمراء كأنها بداية مرض الجدري . في تلك الأيام ذاع صيته في رواية الحكايات، فقربته عوائل الشيوخ إليها . فتجده يمضي يوما أو يومين في (مضيفهم) يأكل الطابك والسمك ويجلبون له (اللكاط) من أعماق الهور . وفي أحد الايام عرض عليه أحد الشيوخ أن يكون (سركالا) لديه ولكنه رفض، لأنه معتاد على التجول ما بين القرى ومغازلة الفتيات في الحقول.

وفي يوم صيفي، شاهد أبي أمرأة كانت قد خرجت لتوها من النهر بعد أن أنهت عملها مع نساء اخريات في (حش) ونقل (كارات) الشلب، وقد التصقت (دشداشتها الجلسي)

عليها فظهرت تفاصيل جسدها . لم تكن منتبهة لوجوده حين جلست على الجرف وبدأت تغسل قدميها من الطين . سحرته تلك الأقدام، التي وصفها لأمه في تلك الليلة، وقال لها إن قدميّ تلك المرأة تشبه أصابع القند، (أي مخاريط سكرية بيضاء، عادة ما تشترى بالمقايضة مع الحبوب والصوف والجلود).

وفي اليوم الثاني، ذهبت أمه ومعها ميسورة ابنه عمها إلى أكواخ الحاج حردان، أمضين يوما كاملاً تعرفن فيه على بنات وأولاد الحاج حردان وأمضين ساعات طوالاً في (صريفة) النسوان شاهدن الجدائل الغليظة وتلمسن الأيدي والافخاذ، أثارهن وشم البنت، الذي ينحدر من الرقبة إلى الحنك وصولا إلى الشفة السفلى، شاهدن حجولها الذهبية، وعجبن لما يمتلك الحاج حردان من جواميس كثيرة.

بعد ليلة من ذلك أتى أغلب أصدقاء أبي شمخي وعشيرته وخطبوها، اطلقت عيارات نارية وارتفعت الهوسات والأغاني والهلاهل في أكواخ ابي شمخي.

بعد أن سمع شيخ العشيرة بذلك حرم عليه الجلوس في مضيفه . واشيع في القرية ان سبب ذلك ان الشيخ كان يأمل بتزويج شمخي من امراءة في باله وكان اغلب من في القرية

يعرفون دون ان يصرحوا بشيء أن الشيخ في أيـــام شـبابه، كانت له علاقة مع العبدة (نوعة) التي انجبت منه ابنة قبيحـة، وعندما وصلت إلى سن الزواج، لم يخطبها أحد . ولأن (نوعة) تهدده دائما بفضح سره، لذا تراه بين الحين والاخر يقرب أحـد شباب القرية ويكرمه عله يتزوج ابنة نوعة . لذلك لـــم يبـد غريبا على مسامع الناس أن الشيخ طرد شمخي من مضيفــه بعد أن بالغ في إكرامه والاحتفاء به . حتى أنه ادعى بأنه لــم يكن يطيق حكاياته ولم يكترث يوما بها . في ذلك الوقت كــانت أم شمخي تستعد لعرس ابنها . ذهبــت الــى سـوق الطوَيــل وأشترت ثلاث (دشاديش جلسي) لزوجة ابنها المرتقبة وتعبـت في البحث حتى وجدت ذلك الصندوق الذي تزينه صورة بنـــت المعيدي، ولم تنس الناموسية الكبيرة و(المشـــوفة) والديــرم والبخور وعلك ماء والمكحلة وثلاثـــة أكيــاس مــن الحنــاء، ومداس نسائي . وبعد عودتها من سوق الطوَيل مـــرت علـــى أكواخ حردان وأعطتهم جزءا من جهاز العـــروس، مـــا عـــدا الصندوق الذي وضعته في صريفة العرس . بعدها بأيام ومـــن دون أن يعلم حردان، وقفت في (شريعتهم) أكثر مـــن عشـــرة زوارق، كان الزورق الكبير الذي يسمونه (البركش) مفروشـــا

ببسط ذات ألوان زاهية واكثر من ثلاث وسائد حمراء وصفراء محاطة بقماش أبيض، نزل السيد من البركش، ونـــزل بـاقي الرجال من الزوارق الأخرى . أغلبهم يمسكون بنادق قال السيد (نريد نزف مرة شمخي)، لم يتكلم حردان بكلمة واحدة، ذهـب إلى صريفة النسوان، اخبرهن بقدوم أهل العريس، أجلست الأم ابنتها عارية داخل (الطشت) وأمســكت (الليفــة) والصـابون (لتليف) جسدها بينما إحدى الفتيات تصب الماء عليها، اندفـع باب الصريفة ودخلت فتيات القرية ومعهن سعدية أم الخواتـم، كان لون الحناء الميال إلى الحمرة واضحا وهو يغطي بواطـن اليدين، تقدمت سعدية ام الخواتم، لتلاحظ الورم الـذي سـببه رسمها الوشم على اصابع العروس قبل خمسة أيام جلبت رماد التنور ووضعته فوق الأصابع ثم قامت بوخز المكـان بـأبرة كبيرة فاختلط الدم بالرماد، ثم طلبت من الفتيـات أن يمسـكن العروس ثم مررت الابرة في احد جوانب الأنف أكثر من مـرة ارتفع الصراخ ثم البسوها (الشعاعة) . سعدية بعد أن اطمـأنت على الشعاعة والوشم البست العروس ثياب الزفاف وحجولـها وكحلت عينيها . حردان أخذ السيد إلـى (صريفـة النسـوان) وهناك أقترب السيد من العروس ووضع يده على رأسها وتمتم

بكلمات في سره، أغلب فتيـــات القريـــة الموجــودات أنزلــت رؤوسهن إلى الأرض وحال انتهائه امسكها من يدها وسار بها مسرعا الى البركش، ارتفعت الهلاهل، الرجال أطلقوا عيـــارات نارية كثيرة، عندما تحركت الزوارق، كان الحاج حردان، يسير ببط مع مسير الزوارق، وبعد أن شارفت على الابتعــــاد عــن حدود منازل الحاج حردان، رفع السيد يده مودعـــــا، فتوقــف الحاج، متابعا بعينيه الزوارق المبتعـــدة . ارتفعــت أصـــوات الدفوف، الماء يحاول التسلل الى داخــل الــزوراق لسـرعتها وتقارب بعضها من بعض، وعندما وصلوا إلى أكواخ شـــمخي سمعوا مغنياً يردد:

جلجل عليه
الرمان
وانا النوم
حاليلي

أحد السراكيل وبعد أن شاهد العروس تدخل إلى صريفتها، أخذ شمخي جانبا وقال له: (الشيخ يقول ما تبقى بعد بهاي القرية).

بعد الزواج بأيام قليلة هاجر شمخي وزوجته الى سوق الطويّل.

— ٥ —

بعد أيام من زواج شمخي الثاني، تزوج علاوي البنك من اختي الكبرى، ولأن اغلب الناس بدأت تضرب به المثل في البخل، فقد أسماه بعض الأولاد بعلاوي الجلف، اضطرت شقيقتي ان تجلب ماكنة خياطة الأم وتخيط الثياب لأهل الدربونة، علاوي الجلف ذاع صيته باعتباره من أكبر تجار الحبوب في المدينة، يجلب الحبوب بتركتورات من الحقول البعيدة ينظف الردئ منها ويطحنه ويبيعه في السوق باسعار مضاعفة، أما الحبوب الجيدة اللامعة فكان يبيعها في المدن الكبيرة ويدخل دنانيرها في المصارف وعندما ما تسأله عن سفرته وأرباحها يقول لها (أسالي عن امج قبل متسالين

عليه). في أغلب الصباحات كان يتركها بدون افطار، لأنه يخرج مع طلوع الفجر، بحجة تأدية صلاة الجماعة في المسجد. خلال الايام الاخيرة، كان يجلس مع الصبية (العربنجية) في مقهى الحاج عبد، حتى أن صديقا له قال انه اشترى أغلب (عربابن الدفع) في المدينة . اختي الكبرى دائما تشاهدني في الشارع العام أو على شريعة السوق ولكنها لا تولي وجودي أي اهتمام . وفي مرة اوقفني وقالت لي كلمات متشنجة:

ـ صدك أمي بالولاية !

ـ يقولون إنها ذهبت إلى جدي حردان

ـ وأنت الى أي مكان تذهب ؟

ـ لا أدري

ـ ألم تذهب اليهم ؟

ـ دائما أذهب الى الهور فقط

بعد أيام قليلة عرفت ان علاوي الجلف، تزوج من ابنة زهرون واشيعت عنهما أخبار منها ان زوجته الجديدة، لم تبق

على دين أجدادها وإنها (مبروكـــــة) وتجيــد اخـــراج الأرواح الشريرة ولا تعمل السحر بل الأعمال التي ترضــــي الله . مــع غروب الشمس كنت عائدا من الهور، شاهدت ابنـــة زهــرون تضع على رأسها قطعة قماش بيضاء، تقـــف علـــى صخـرة صغيرة في الماء ولكنها قريبة من الجرف، تمســـك طاســة ، تجرف فيها الماء من النهر الجاري وترميه أعلى يديها لينساب ببطء باتجاه الأصابع، تحرك شفتيها بكلمات لم أســـمع منــها شيئا. ثم رمت الماء على الأقدام، تركت الطاسة علـــى حافـــة النهر، أمسكت بيدها عبأتها وغطت جسدها بطريقة تنـــم عـــن حشمة، ثم توجهت باتجاه البيت العتيق، كانت عيناها تتحركـــان بحذر خشية مرور الأولاد الذين يتسابقون في رمي الحجارة في النهر فهؤلاء الاولاد كلما شاهدوها تصلي يرمونها بالحجـــارة ويبصقون باتجاهها فتقطع صلاتها وتنهزم تاركة (ليفتـــها) أو صابونتها على الجرف.

## ـ ٧ ـ

قبل ان نصل الاكواخ قادمين من الهور قالت إضوية وهي تمسك عصا تلوح بها خلف مؤخرات الجواميس:

ـ ربما سنترك السد !

ـ ما الذي أصابك ؟ !

ـ لقد حلمت ليلة البارحة بالسد كأنه جسد ميت، ليس له رأس، أقدامه تحاول أن تجرفها سيول لم أسمع منها غير صراخ يخرج من جميع الاتجاهات.

ـ لكنه حلم.

ـ كان.

ـ هل بإمكان أحد ما أن يقتل الحلم ؟!

ـ ربما.

ـ عويد لم يسخر منا.

ـ الطيور ليس من السهل أن تسخر من الماء.

ـ لكنه الموت.

ـ كلا إنه حلم وليس بإمكانه أن يجعل من العالم جثة.

ـ ربما حياتنا حلمٌ أيضا.

ـ ولكن عويد ما زال بيننا.

إنني أتحسسه الآن يجلس فوق خشبة متهرئة والأمواج تصل قرب أنفه.

ـ النهر ما زال بيننا.

ـ ثمة أمواج كثيرة تلتف على عنقي.

إنها أمواج من رجال.

لي رغبة أن أمسكها أو أصل إلى أي مكان يصلني بحياتي.

ـ ربما نحن لا نعرف شيئا

غير أن نمسك سنوات السد ونربي الجواميس.

ـ إنني أتحسس من يخبرني بأنني أعرف أشياء كثيرة.

## ـ ٧ ـ

في هذا العام بالتحديد ولد الولد الذي أسـموه عاصفـاً والذي قيل إنه له أكثر من أسم، ولكنه يدعى عادة بـ (محمد). حدثت العاصفة خلال لحظات ومع ذلك سمي هذا العام بها لمـا أحدثته خلال تلك اللحظات من دمار وما تركتـه مـن خـوف وذكرى مرعبة لدى أهل القرية . لم نشاهد غيوما ومـع ذلـك كان الماء يغطي كل شيء . تسرب ببطء مـن بيـن الحافـات الجانبية للهور واتجهه الى أسفل الأكواخ . لم تسقط الاكـواخ ولكن السنابل ذهبت مع الهواء والماء تطاير من قوة العاصفـة لم تظهر الطيور في تلك اللحظات ولكـن الـهواء أخـذ معـه الأشجار الصغيرة، من اماكن عديدة سمع الصراخ ولكن ثمـة صرخة وحيدة سمعها أغلب ابناء القرية، انتشر صداهـا الـى أماكن بعيدة . الفجر كان يحاول أن يتسلل مـن بيـن خيـوط العتمة، والأكواخ القريبة من الكوخ الذي خرجت منه الصرخـة خرج منها الرجال واطلقوا من بنادقهم اطلاقات تعلن عن خطـو قادم، اجتمع أغلب أهل القرية قبالة الكوخ الذي اتضح فيما بعد

بأن كل من فيه كان يطلق صراخا بأنفاس كأنها تحتضر . دخل أكبر الرجال سنا وفوجد امرأة متجردة من الثياب وقبالتها طشت مملوء بالماء وثمة أمرأتان تمسكان طفلا نصفه الاعلى داخل بطن الأم، كأنه لا يرغب الخروج . الرجل الكبير السن اخذ مكان احدى النسوة. أمسك فخذي المرأة ثم مرر اصابعه من بطنها وصولا إلى ما ين الفخذين، تمتم بأشياء لا أحد يعرفها ثم سحب الطفل من بطنه ليسقط بين يديه ليضعه داخل الطشت ويرمي فوق رأسه ابريقا من الماء.

قطع الحبل الذي يربطه بالأم ورفعه الى السماء، نظر إلى الأم وقال: (راح أسمي هذا الوليد خليل) . عندما.خرج الرجل الى باحة الدار وأخبر الرجال بكل ما جرى، ارتفعت الضحكات وأطلق رصاص كثيف في تلك الليلة وسمع ابناء القرى البعيدة ضربات اقدام الرجال على الارض (والهوسات) ترتفع كلما اقترب الفجر.

## ـ ٨ ـ

سأل الضيف الاجنبي والدي: (ما تفاصيل رحلة الهروب التي كان يقوم بها بعض الفلاحين من القرى القديمة)، فقال ابي: إذا هرب أحد الفلاحين من قرية الكفاخ من دون أن يصله رجال الشوخ والسراكيل ويقتلوه سيصل بعد يومين إلى سوق الطوّيل، مشيا على الأقدام، لأن ركوب الزورق يفضحه، ماراً بقرى الصحين والخميس والسودانية، خشية مشاهدته من قبل بعض المنافقين، الذين ربما يسرعون في بث نبأ هروبه فيلحق به السراكيل ورجالهم ويضربونه مثلما حصل لرجل يدعى حسين بن محيسن، حين لحقوا به وضربوه بلا رحمة، حتّى أن إحدى ضربات السوط، مرت على خصيتيه فـانفتح كيسهما، وأرجعوه محمولا على بساط الى القرية، قيل إن سعدية ام الخواتم، خاطت خصيتيه بخيوط دقيقة وقالت لزوجته (لا تخافين .. البيضات ما بيهن شي).

في سوق الطوّيل، ليس من السهل، ان يتعرف أحد على الآخر، عدا أبناء المدينة القدامى ولو صعد على صخرة

ونظر إلى الرؤوس المتجولة، يجد أغلبها لرجال فلاحين، غطوا وجوههم (بالشطافي) وتركوا فتحات صغيرة قبالة العينين، ما أن يسأل أي من المارة عن (المواطير) حتى يشير له ويقول هل تريد أن تذهب الى الميمونة ويتحدث عن حياة العوائل القديمة فيها والمغامرات التي تحصل مع أشخاص تنتقل أخبارهم بين قرى الهور والمدن المجاورة . عندما يصعد الى (مواطير الديزل) يجد أن لها حجم غرفة صغيرة، يقع المحرك في المنتصف وثمة حافات مثل مساطب حول كرسي السائق الذي يقع في الوسط خلف المحرك بقليل، عندما يجلس السائق يجد إلى يساره قرصاً دائرياً من الحديد، إذا حركته إلى الأمام يتجه الماطور الى جهة اليسار واذا حرَّكته إلى الخلف يذهب الى جهة اليمين، من زوايا الماطور الأربعة ترتفع أعمدة حديدية صغيرة تحمل (القمارة) الخشبية لتحمي الجالسين تحتها من المطر والشمس . الرجال والنساء يجلسون معا وفي الأغلب يتبادلون أحاديث غرامية وقصص الوفاء لدى عشاق الهور . فالماطور كان سببا مباشرا في الكثير من الزيجات وعلاقات التعارف والصفقات التجارية والمشاكل الطارئة . أغلب المواطير التي تصل سوق الطويّل بالمينونة تعود لرجل

يدعى (أبو زوريه) عدا مواطير حنون وكاظم الحنظل وبيت أبو النون وعطوان أبو نوعة فإذا كان (السره) (لأبوزورية)، فإنه سيمر ببعض المصاعب منها أن يقف الماطور في قرية الخورة أو باب الهوى ويقول السائق أن الماطور عاطل، يخرج بعض المفكات ويبدأ بتحريك البراغي إلى اليسار واليمين فتتلطخ يداه بالدهن والكاز، فيغضب ويشتم حظه العاثر الذي أوصله إلى المواطير، ولأن أغلب الناس لا يسافرون إلاّ نادرا، فيجمعون له من كل واحد خمسة فلوس، لأتعابه في التصليح أو يصل إلى منتصف المسافة ويوقف الماطور مدعيا بأن الوقود قد نفد، فيضطر بعضهم إلى المشي على الأقدام والبعض الآخر يبقى على حافة النهر ينتظر قدوم ماطور اخر . عندما شاعت هذه المشاكل المفتعلة، قرر بعض أهالي المدينة الا يصعدوا في مواطير أبو زورية وينتظروا كاظم الحنظل الذي يوجد في ماطوره، مسجل يطلق أغنيات ريفية، يصل صداها إلى الأكواخ والحقول البعيدة.

اغلب سواق الماطورات يضعون بعض الرجال فوق القمارة والذين هم في الاغلب من الشباب على امتداد المسافة

يغنون ويصفقون (ويضربون الأصابع) خاصة عندما يشاهدون فتيات (يأخذن الماء من الشريعة).

قبل أن تصل الميمونة تشاهد خزان الماء مثل رجل عملاق تحمله أقدام طويلة وكثيرة، عند حافة النهر تجد النساء اللواتي يبعن الشاي و(السياح) وبيض البط، بعدها بخطوات قليلة، تدخل إلى سوق الميمونة فتجد باعة القصب والبواري في مدخل السوق وباعة الخضار (والكصابين) وباعة الأغنام وحشداً من الباعة على جانبي السوق . أغلب باعة الطوّيل والميمونة يتحاشون المجاملات الكثيرة مع (المعدان) ويوصي كل واحد منهم الآخر بالحذر لأنهم غادرون وليس لهم صاحب أو صديق . عندما يصلون المدينة تتشنج وجوههم يجلسون على الشريعة ويغلسون أقدامهم في ماء النهر ثم يرتدون نعالهم واحذيتهم البلاستيكية، التي أخفوها في أكياس (جنفاص).

من الميمونة ينطلق يومياً (باص) خشبي وحيد يملكه كاظم قامة الذي تغير اسمه بعد أيام قليلة من شراء (الباص) ليصبح كاظم حمامه يعرف أغلب الناس أن الذي يجلس في الباص يدفع خمسة عشر فلسا والممسك بالحافة الخارجية

للباص (جناحي) يدفع خمسة فلوس . أغلب القرويين كانوا يحملون أكياسا صغيرة من الحبوب وزجاجات من الدهن الحر من أجل بيعها في السوق ليشتروا المناجل (والمساحي) والمحاريث خاصة مع بداية موسم الزراعة . كان رجال الشيوخ والسراكيل يرصدون من يتأخر في العودة ويقتادونه رغما عنه إلى القرية مرة أخرى . يمضي (باص) الخشب بطيئا حتى يصل الى مفترق طرق يؤدي احدها الى مرقد السيد احمد الرفاعي، ويسلك (الباص) الطريق الآخر الذي يمر بقرية (أم ايشين) وقرية (أبو سبع) عابرا على سدات ترابية عند الوصول إلى شط (أبو سبع) ليلتوي الشارع بعد ذلك ويمر من قبالة مرقد السيد منيهل الذي يسمونه (أبو العرابيد).

وأصل هذا اللقب أن رجلا تواجه مع بعض الرجال يرمونه باطلاقات متفرقة ولكن حين دخل الرجل إلى الضريح اصطفقت الأبواب خلفه ويقال ان (عرابيد) كثيرة خرجت من أسفل باب الضريح . منذ ذلك ليوم وكلما مرَّ (الباص) الخشبي من قبالة الضريح، يرفع القرويون أيديهم للسلام على السيد ويطلبون منه، أن يحقق ولو بعضا من امنياتهم.

بعد أكثر من ساعتين يصل الباص إلى الشارع المبلـط، المؤدي إلى سوق العمارة المسقوف، وقبل أن يقف البـــاص، يجتمع حوله حشد من الرجال والنساء لشراء الدجاج والبيـض والحبوب والأسماك وطيور الماء وتجميعـــها وبيعــها لتجــار يأخذونها بعد ذلك إلى بغداد والبصرة ومدن أخرى.

ـ ٩ ـ

بعد أن خرج عبود من السجن زاره أغلب اهالي مدينــة الطوّيل وجلبوا له السمك والطحين والدهن (وحلانات التمــر)، فهو الأخ الوحيد لــ (وسيلة) أم الدكان . وكان قد دخل السجن بعد سرقته لبيت احد وجهاء المدينة، وخـــلال فــترة ســجنه الطوّيل، كان يأمل بذلك اليوم الذي يخرج فيـــه، ولكــن ذلــك الوجيه يتصل في العادة بمدير السجن ويعطيه الهدايا والدنــانير من أجل أن (يطمر) عبود لمدة اطول داخــل الســجن . ومــن حسن حظ عبود أن هذا الرجل مات أخيرا . فخرج بكفالة قدرها خمسة دنانير، على ألا يعيد الكرة ويسرق جــاره . حتــى أن

مدير السجن قال بسخرية (لو هوه ســـارق غريــب لأطلقنــا سراحه بعد يومين ولكنه سرق جاره) وهز يديه.

عندما دخل السيد حميد في مقدمة الرجال لتهنئة عبود، تراجع قليلا عندما شاهده، فهولم يشاهده سابقا ولكن (عبــود) بدأ ينظر إليه بطريقة أثارت انتباه الحاضرين . بدأ عبود يتكلـم عن مغامراته في الســـجن والطــرق الجديــدة فــي (النكــر والتقفيص)، روى كيف أنه سرق ذلك الرجل المعروف من أجل أن يذيع صيته ويخطب أي امـــرأة فـــي المدينـــة لأن أهلــها سيقولون (والنعم من عبود الحرامي . والرجل الذي لا يسرق، ليس برجل)، قال عبود انه سبق أن شاهد السيد حميد ولكـــن السيد أصرَّ على عدم المعرفة، فانفعل عبود وهـــو يقــول لـــه (موجنت مسجون ويانه ؟)، ارتجف السيد حميد واعتبر تلـــك إهانة له وخرج من البيت . في اليوم التالي، تـــرددت أشـــاعة مفادها، أن السيد حميد كان مسجونا مع عبود بتهمة (القجــق) حيث كان يهرب بعض السلع إلى الأحواز والكويـــت ويجلــب أشياء اخرى وإنه كان يسكن في قرية الصحين وله هناك اولاد كثيرون من ثلاث نساء لهم شوارب كثة، يعملون فـــي صيــد الأسماك، وفي الأيام التي يقل بها الصيــد يمســكون بنادقــهم

ويسلبون القادمين من أبناء المدن والأجانب لمشاهدة جمال الهور وإشاعة اخرى قالت ان السيد حميد لم يدرس الفقه في النجف الأشرف.

في اليوم الذي قرر أن يسكن فيه هذه المدينة أشترى خمسة أمتار من القماش الأسود ولفها حول رأسه، فهو ليس من سكان المدينة القدامى ولا أحد يعرف اشياء دقيقة عنه . كان يمضي اوقاتاً طويلة في المسجد يؤدي خلالها صلوات غريبة وطويلة، بعد انتهائه منها، يجلس بجوار أصدقائه الخياطين والبزازين ويتبادلون النكات والأقاويل . وفي اغلب الصباحات كان باب منزل السيد حميد مزدحماً بالقرويين، الذين يأتون من أماكن بعيدة في الهور، للاستشارة والتبرك وأخذ (العوذ) والنصائح ويجلبون معهم طيور الماء، والسمك، والخريط ويدسون أسفل فراشه دنانير كثيرة ولكن (عبود) أكد أن هذا الرجل التقاد في السجن ولم يكن اسمه (حميد) اذ كان السجانة يسمونه (خليف) وليس له علاقة (بالسادة)، بعد أن أنتشر هذا الخبر لم يعثر أحد على السيد حميد في بيته ولا في مسجد المدينة الكبير.

## ـ ١٠ ـ

نظرت من الفتحات التي ما بين القصب، شاهدت رجالا بثياب عسكرية، يجلسون في زورق، عيناي تتجه معـه وهـو يشق الماء بقوة . قبل أيام قليلة لم يكن مألوفا لي وجود مثـل هذا الزورق ولكن في المدة الأخيرة شاهدنا أكـثر مـن زورق يمضي في نهر الكفاخ، يحمل رجالا غرباء ويمضي الى أمـاكن لا يمكن تحديدها . الزورق الذي يحمل الرجـال العسكريين، خفف من سرعته قليلا ثم توقف ولكن لماذا وقف والقرية لـم يسبق أن وقف فيها زورقٌ مثل هذا من قبل، تحسست مكانا ما يؤلمني أسفل البطن، حركت أصبعي الصغير باتجاهـه وبـدأت بحك المكان . أحد الرجال العسكريين وبعد أن توقف الـزورق ربطه الى جذع شجرة بمحاذاة النهر، كـانت واضحـة فوهـة البندقية التي علقها على كتفه لكل من ينظر اليه ولكن ليس من السهل معرفة نوعها . نظرت أسفل بطنـي، أرعبتنـي بقعـة حمراء منتفخة . بعد لحظات شاهدت المرأة المجنونـة التـي غرق ولدها في التواء النهر (الموات) يمسكها العسكري مـن

يدها ويحاول سحبها إلى الزورق البخـــاري . أقـــاويل كثـيرة انتشرت في كافة أنحاء القرية حال مغادرة الزورق البخـــــاري حدود نـهر الكفاخ فمنهم من قال ان هذا الشـــرطي هــو أحــد اقربائها وأخذها معه الى منزله، وآخر قـــال ربمـــا اتهمتـــها الشرطة بقتل الصغير وآخر قال إن رجلا من الشرطة يقال انــه كان كلبا شاهدها مرة واحدة قرب الحقول وأعجب بها، لذا فقـد جلب بعضا من اصدقائه لخطبتها وأخذها الى مكـــان مجـــهول ليعيشا هناك . الأقاويل لم تنته حتى أن بعضهم قـــال أن هـــذه المرأة لم تكن متزوجة وليس لها ولد ولكن كل ما كانت تقولـــه هو بعض الأوهام، ورثتها عن عائلتها التي لم يعاصرها أحـــد وليس بالإمكان معرفة أي شيء عنهم.

\- ١١ -

لأول مرة تهبط طائرة ذات مراوح في القريــة . هـذه الطائرة كانت تحلق في الأعالي في مثل هذه الأيام من كل سنة، ترمي مسحوقا أبيض في الـــهواء، نشاهده يشـق طريقـه بصعوبة، تأخذ النسمات الرطبة المسرعة كالبرق نصفه باتجاه أماكن بعيدة والنصف الآخر ينزلق ببطء على نباتات الحقـول . باثاً رائحته الغريبة، ومن دون خبر مسبق اجتمع سكان القرية حول الطائرة . كان التراب يتطاير فيلتصق ذروره على الوجوه المذهولة من حركة المراوح التي رفعت الدشاديش إلى الأعلـى ورمت بالكوفيات إلى الأرض . الأولاد رموا طائراتهم الورقيـة ووقفوا خلف الآباء . عندما توقفت المروحة نزل رجل اشــقر متوسط الطول يرتدي بنطالا أسود وسترة رمادية، يمسك بيـده دفاتر غليظة، تقدم باتجاه الرجال كبار السن . عندمـا اقـترب منهم مدَّ يده باتجاه أحدهم وتكلم بلغة غــير مفهومــة . احـد الرجال عندما سمع كلماته رجع الى الخلف واختلط مع الأولاد. نزل رجل آخر من الطائرة، يضع أشياء غريبة بجـوار أذنيـه

ربما هو قائد الطائرة . نزل خلفه رجــل آخــر تقــدم الطيــار بخطوات سريعة وقف بجوار الرجل الأشقر موجها نظره إلـــى الرجال كبار السن قال: هذا هو مارسيل مود وينـــوي تــأليف كتاب عن حياتكم يحمل عنوان (أيام في الهور) ابتســم أغلــب الرجال وحركوا رؤوسهم باتجاهات مختلفة.

أمضى مارسيل خمسة ايام، متنقلا بين اغلــب أكــواخ القرية ومصبات الأنهار مضى إلى أعماق الهور . زار المطحنة ووصل الى نهايات الحقول، تلمس جدران السد المصنوع مـــن النورة ولكن ما جذبه ووقف قبالته للحظات طويلـــة الــزورق الكبير الذي ضربه باثنين من أصابعه وقرب أذنيه من الخشــب ثم التفت صوبنا بوجهه الذي كشف عن انفعال كبـــير، تحــدث بكلمات سريعة، فمازحه الرجل الذي معه ثم قال لنا إنه يقــول: (بان خشب هذه السفينة مشابه لخشب المركب الأنكليزي الــذي دخل بحر العرب لأول مرة بقيادة الضابط البريطاني خورخـــس يقال إن أحد القرويين رماه بسهم يحمل شعله نارية فـــاحترق ولم يعثر على أحد من الجنود الذين كانوا على ظهره) . الرجل الاشقر تأمل داخل الزورق وكأنه يبحث عن شيء ما، توقـــف

للحظة متأملا صورة الوجه الطويّل ذي الاذنيـــن العريضتيــن والعينين الغريبتين قال:

ـ من الذي نقش هذا ؟

ـ إنه أبي.

ـ ماذا كان يريد ؟

ـ إنه وجه الشيطان !

ـ وهل هناك ضرورة له ؟

ـ إذا جاء الشيطان ليدخل في الزورق سيشاهد وجهه ويــهرب لأنه سيعتقد بان في الزورق شيطاناً آخر.

أخرج مارسيل دفتره واتكأ على احد قدميه وبدأ يكتب . الرجل الذي كان ينقل لنا كلامه استغرب عندما عرف أنه يتكلـم بلغة عربية لا تحمل الكثير من الأخطاء وانزوى خلف الرجال . تحرك مارسيل إلى مقدمة الزورق وأمسك النعل الصغير الــذي ثبت ليكون ظهره بمواجهة الرائي، مرّر أصابعــه فــي داخــل الحفر الصغيرة ذات الأشكال المختلفة، تلمس بأطراف أصابعــه المسامير التي ثبت بها النعل على الخشب قال لي:

ـ ما الذي يفعله هذا النعل هنا ؟

ـ لقد أخبرني أبي ...

ـ إين هو أبوك ؟

ـ إنه ..

ـ هل تريد أن يذهب الرجال

ـ إنه بيت الشيطان هكذا اخبرني عويد قبل أن يموت

رفعت ذراعي وكأنني أريد أنى أعانق الزورق فظهر واضحا على يدي اليمنى الوشم الذي رسمه أبي عليها.

أخرج مارسيل شيئا يشبه الحجر من كيس أسود مثبت على حزامه، رفعه إلى الأعلى ثم وضعه بجوار إحدى عينيه ثم ضغط باحدى أصابع يده فخرج منها ما يشبه الوميض . وجه ذلك الوميض باتجاه الوشم أكثر من مرة ثم اقترب من الحبل، مسده بأصابعه، قرَّب الحبل من أسنانه . الجموع كانت تعمل دائرة حولنا والرجل الذي كان ينقل الكلام لنا لم أشاهده بعد ذلك . ولكنني شاهدت قائد الطائرة يقترب من مارسيل الذي كان يحاول أن يمرر أظفاره في منتصف الحبل ليوجه كلامه بعدها الى الجمع هذه المرة: هذا الحبل هو حبل المركب

الانكليزي نفسه الذي غرق، إن هناك ما يثبت ذلك فهو مصنوع من جلد الكنغر ومن المستحيل صناعته هنا، بعد انقضاء ساعة من النهار كان حشد مـــن الأولاد يســـيرون خلفـــه، يرفعـــون دشاديشهم قريبا من الأفخاذ وفي الأغلب كانت تظهر اعضاؤهم الذكرية متوترة تهتز يمينا وشمالا.

بعد أن حلقت الطائرة سقطت من نافذتها مجموعة مـــن الأوراق لم يعر الفلاحون ذلك أي اهتمام واستمروا في الســـير باتجاه أكواخهم . عيناي فقط ترقبت حركة الريح وبطء نـــزول الأوراق منها والتي كان أغلبها اوراقاً بيضاً، هناك ورقة واحدة كان في منتصفها خطوط متشابكة قال لي أحـــد الاولاد بأنـــها (خريطة).

## ـ ١٢ ـ

اهتم الناس بالأقاويل التي سمعوها عن القريـــة التـــي تظهر محاطة بالمصابيح مع بداية اليوم الأول للربيع حتـــى ان بعضهم اكد بان قرية الكفاخ لم تندثر وانها موجودة في مكـــان ليس من السهل العثور عليه، تحيطها الملائكـــة مـــن جميـــع الجهات و هذا ما جعـــل الأغلبيـــة يعتقـــدون بأنـــها محاطـــة بالمصابيح. وردد رجال لم يشك أحد في صدقهم أن سكان قرية الكفاخ لم تتساقط عليهم الرمال ولكن ثمة مدينة يعرفها أبنـــاء القرية سقطت عليها رمال كثيفة ولم تصل منها إلاّ أخبار قليلـــة وهذا ما جعل السيد مدير مدينة الطوّيل يرغم شـــمخي علـــى تأليف حكايات مناقضة لتلك التي انتشرت بين ليلـــة وضحاهـــا وبدأت تشوش أفكار الناس . بعد أيام قليلة اخترع شمخي أكثر من عشرين حكاية، غالبا ما كان يرويها للغرباء أو من يمتـــد فضولهم لمعرفة اسرار الهور . في الأيام الأخيرة لم تعد تعنيني تجمعات الرجال ولا رغبة لي في الدخول الى غرفة الضيـــوف فأنا أحاول استنطاق الصوت الذي لم يكن بعيدا عنـــي ولكنـــه

ليس صوتي كان يأتي من جهة النهر ولربما هو صوته . أريد أن أكلمه عن كل ما عرفته ولكنني لم أجده يافعا في المرة الأخيرة التي اقتربت بها منه ... وجدت الأسماك ميتة والسلاحف تحاول الوصول بخطى سريعة إلى الهور، ظهرت سيارة كانت قد سقطت فيما مضى في منتصف النهر لأن سائقها كان يقود بتهور على الشارع الأسفلتي . ظهرت قدور كثيرة ممتلئة بالطين وهناك أشياء لا يمكن تمييزها إلاّ في حالة النزول الى النهر الفارغ . منذ ذلك اليوم الذي لم اهتم بتحديده بالضبط والأسئلة مثل أصوات لا يمكنني إيقاف صراخها . ولكنه ماء اسود يشبه الماء الذي رمته عليّ المرأة العجوز في اليوم الأول لولادتي .. كل هذا يجري والرجال الأشداء مازالوا يستمعون إلى حكايات اعتنى بترويجها وصناعتها جيدا الرجل الذي أقنعوني أنه أبي.

# الفصل الرابع

# الزواج المقدس

ـ ١ ـ

إنها خطوات ثقيلة يختلط فيها صمت الليل بضوضاء النهار وتنتشر رائحة الغيوم على سطح الماء ثم تصعد ببطء على جدائل خليّل بن عويد الطوّيلة يعانقها، يترك رائحته عليها تلتصق بالجسد الذي لم تعد تحميه غير قطعة صغيرة من القماش الغليظ شدها خليّل بن عويد بين فخذيه كأن هناك موتاً آخر ينتظر هذه العائلة يمد لها خيوطا اخطبوطية من أجل أن يمسكوا أطراف ... موت عنيف، تبتر فيه الاعناق وتنفصل الأصابع عن الكف، ترمى فيه نفايات الإنسان على أماكن مطلة على ضوء الشمس . يتمزق وتأكل حشرات كبيرة أنفه . تذكر خليّل بن عويد ما قاله دمغي عن سكان المدن بانهم وحدهم من أغلق الأنهار ورموا قشور القصب على حافات الموت فتذكر خليّل بن عويد حكاية ذلك الرجل الذي أصبح كلبا.

## ـ ٢ ـ

الجواميس القليلة التي ما زالت حية أنهكـــها الجــوع والعواصف، أنهكها المطر القذر الذي لا يمكن لـــها ان تتلــذذ برائحته وكأنه قدر لها أن تسير في المياه الشـــائكة لتشــاهد صور الموت وهي تتسلق ظهورها لتسقط واحدة تلو الأخـــرى مثل قطعة قماش سوداء تطفو علـــى ســطح المـــاء تنهشـــها حيوانات مائية لا يمكن معرفتها غالبا ما كانت تصطـــدم بـــ خليل، وفي أكثر من مرة جرحته جروحا صغيرة ولكنه يعلم أن هناك من يشير بإصرار إلى أماكن مجهولـــة، أمـــاكن لا احــد يعلمها إلاّ تلك الأصابع الواضحة قبالته، ويمكـــن لأي إنســـان صغير العمر وقصير النظر أن يميز جراحها الكبيرة الممتدة من الأظفار إلى نهاية الكف انها مثل خشبة تتســـلل ببــطء إلـــى أجزائها النار، التصق عليها الكثير من الطين والنباتات المائيــة الميتة حتى أصبحت كتمثال مغطى بالوحل، كلما يشتد المطـــر، يشتد الظلام، قلوب الأطفال مطارق تنهال على غرف من زجاج . انها عشرة أيام من السير في المياه الموحشة والعواصـــف،

والآن أدرك خليل بن عويد بان ثلاث جواميس فقط هي كل ما بقي معه.

اليوم هو الأشد مطرا ورعدا وعواصف، حتى أن الريح تمنع الخطوات من السير بخفة، إحدى الجواميس توقفت، لترتفع جدائل خليل الذهبية خلفه، جدائل مغموسة بماء الموت ولكن الأب ما زال يشير باتجاه القرى القديمة، الزورق يحاول الإفلات كلما داهمته قوة الريح، يحتضن الماء بقوة فتنفتح ثغرات كبيرة ما بين الماء ونهاية الزورق، ثغرات مثل فم كبير يحاول التهام الأرض . حتى أن خليلاً عندما تقدمت رجله اليسرى لم تستطع أن تمسك بالطين وهذا ما جعله يتوقف دافعا قدمه اليسرى الى الأمام والأخرى إلى الخلف، الجواميس وقفت أيضا إلى يساره، الريح تفعل فعلها معهن أيضا . فهي قد اندفعت أكثر مما كانت واشتد المطر . خليل بن عويد أظهر كل ما لديه من قوة من أجل أن يخطو خطوة واحدة ولكن الريح تشتد لحظة بعد أخرى، فقد شعرت العائلة ان الزورق يحاول الارتفاع مع الهواء من كثرة اصطداماته المخيفة بالماء والتي تشبه معانقة صبي لامرأة عجوز . إحدى الجواميس انزلقت قدمها وأخذها الماء بسرعة، اطلقت صرخة تشبه صرخة

المجنونة التي غرق طفلها بجوار (الموات) في تلك اللحظة لم يستطع خليل بن عويد أن ينظر الى الخلف ليشاهد العائلة ولكنه تحسس بأن الحبل يتحرك بطريقة مجنونة تأخذه الريح باتجاه الجوانب جميعها في نفس اللحظة وكأنها ترسم دوائر . استمرت هذه الحال لساعات طويلة، اشتد الظلام، وزادت المياه من سقوطها . العائلة بدأت تنظر بحذر كأنها تشاهد ظلا بعيدا يقف قبالة الزورق . ارتفع صراخ الأطفال وأصبح أشبه ببكاء، لم تتناه الى سمع خليل بن عويد إلاّ حشرجات بعيدة، بعد ذلك تقدمت اضوية ممسكة بيدها اليمنى خنجر عويد (عزرائيل) ويدها اليسرى موضوعة قبالة وجهها كأنها تصارع الريح . تخطو ببطء وتضغط بفخذيها حافة الزورق، تحسست مشيتها كأنها طفل يمشي بزهو لأول مرة، ولكن لا يعرف إلى أين يمكن ان يصل . ومن دون أن تعلم، أمسكت المكان الذي ثبت به الحبل بقوة . لم تبذل جهدا كبيرا عندما مررت الخنجر على نهاية الحبل ليرتفع الزورق مثل جنين خرج من بطن أمه . ارتفع الصراخ، نظر خليل بن عويد إلى الخلف، لم يشاهد شيئا، ولكن ثمة ما يختفي في الماء وكأنه قطعة قماش هو كل ما لمحه من بقايا العائلة . أطلق صرخة كبيرة تردد صداها

على امتداد الأفق، شاهد الأصابع تشير باتجاه اليابسة والصوت يخرج من الأضلاع: امض باتجـــاه العشــب، ســحب جســده بصعوبة ونظر إلى الأمام . شاهد أجسادا بأعداد كبيرة تشـــبه جسده تحمل وجوها تشبه وجهه ولهم جدائـــل لا حصـــر لـــها تنغمس في الماء، وجدهم منتشرين حوله، بعد ذلك سمع صوتا ضعيفا يتنامى في اذنيه:

أيها العريس عزيز أنت على قلبي
لذيذ . وصالك، حلو كالشهد
أيها الأسد، عزيز أنت على قلبي
لذيذ وصالك، حلو كالشهد
أيها العريس دعني أقبلك
فقبلتي حلوة الذّ من الشهد
دعني اتمتع بجمالك اللطيف
أيها العريس
أيها العريس
دعني أقبلك*

*اغنية سومرية ترددها العروس الكاهنة في ليلة الزواج المقدس.

نظر إلى الأصابع وجدها تشير باتجاه الصوت صاح بشدة:

الحاد .. حاد .. حاد .. حو .. حي
الحاد .. حاد .. حاد .. حو .. حي

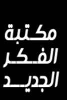
فجأة همدت الريح، وبدت الأمطار تنهمر بتعب وكأنها تشارف على انجاز مهمتها الخفية، حملت الأمواج النعل الصغير المنزوع عن جسد القارب لتصدمه بجذع خليّل، أمسك خليّل النعل بيده اليمنى وتفحصه فغزت أنفه رائحة شواء سمك وصراخ نسوة . تقدم تاركا قدميه تمضيان في حقول تفوح منها رائحة رز ممزوج بتلك الأغنية التي سمعها تطوقه كأذرع تحاول سحبه إلى مكان مجهول . تقدمت أمامه جثة جاموسة، سحب قدمه اليمنى وبدأ يسير باتجاه الصوت:

عزيز أنت على قلبي ..

أيها الأسد ...

# الفهرس

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة - شركة عامة





- محمد نعيم الخمراني
- تولد ١٩٧٠ ــ ميسان

صدر له:

- أنفي يطلق الفراشات ــ

نص روائي دار الواح مدريد ــ ١٩٩٩

- عواصــف قرويــة / مجموعــة شــعرية ــ دار الشؤون الثقافية / ٢٠٠٠

كما أصدر كراسا شعريا محدود التوزيــع تحــت عنوان خطر ــ ١٩٩٧

- له رواية مخطوطة بعنوان (النائم بجوار الباب)
- يكتب مقالات في الأدب في الصحــــف العراقيــة والعربية

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة / بغداد ـ ٢٠٠٢ السعر ١٣٥٠ دينار

تصميم الغلاف : نهلة محمد عبد الوهاب